

obeikandi.com

أمل

الكتاب : أمل

المؤلف : دينا نسريني

الصورة : عدسة أحد فناني الثورة الثورية

التصميم : دينا نسريني

تدقيق لغوي : دينا نسريني

رقم الإيداع : ٢٠١٤/ ٨٨٣٦

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٤٣٦-٥١-٠

الطبعة الأولى : ٢٠١٤

٢٠ عمارات منتصر - الهرم - الجيزة

ت-٣٥٨٦٠٣٧٢ .٢-٠٧ .١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

[Noon\\_publishing@yahoo.com](mailto:Noon_publishing@yahoo.com)

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناسر

للنشر  
والتوزيع

# أمل

رواية لـ

دينا نسريني

للنشر  
والتوزيع

obeikandi.com

لكنوزي الثلاثة أبي وطفلاي الرائعان أحمد ودلع  
لكل طفلٍ أدخل بهجته وجماله إلى حياتي  
لكل سوريٍّ منح سوريا حبه وصبره مهما كان انتماؤه ورأيه  
لسوريا ودموعها المنسابة لأكثر من عامين حتى الآن  
لسندي وظهري و حلمي و أملي.... لأننا  
لكل هؤلاء أخبئ في قلبي الكثير من الأمل  
أهديكم .. أمل

obeikandi.com

الثورة و الحرب .. بستان أملٍ و حقل دماء, ضدان مترادفان و على أرض بلدي نبع الحب و الخير كان لهما أن يلتقيا, كان لهما أن يرتبطا و ثمرة ارتباطهما ما زالت جينياً في رحم المستقبل, و ما بين رومنسية الثورة و قسوة الحرب قصصٌ لا تعدّ و لا تحصى و ما قصتي هذه إلا حرفٌ في مجلد حكاوي سوريا الثورة و النجوم الحمراء الثلاثة ...

نجمتان خضراوان هو ما كنا قد تعودنا أن نرسمه على دفاترنا و صور حافظ الأسد كانت تراقبنا في كل زاوية و شارع لتذكرنا دوماً : "الأرض أرضه, البلد بلده", و إن كان في حنجرتك بقايا صوت, فلديك من الأجهزة الامنية أربعة تتناهش لحمك فيما بينها و (توديك لورا الشمس ) كما كانت تصفها الهمساتُ المذعورة .

سواء كنت في سريرك مع زوجتك, أو حتى في الحمام ! كلمة "أسد" كانت تخضع للرقابة المطلقة, فقد كانت توأمةً لنظرةٍ غريبةٍ من الخوف و الترقب, و تترامى إلى مسامعنا دوماً, قصص من ذهبوا و لم يرجعوا, و دوماً للطنائشين تذكرةً بأن الثمن لن يكون فردياً فالأسرة كلها ستدفع الثمن .

أغلال الخوف و الصّمت تدلت من أعناق شعبيّ بأكمله و في رحابها نمت كلماتٌ عطنة, كلماتٌ يدرك مغزاها جيداً فقط من عايش ذاك " العصر الذهبي "

( ما بتعرف مع مين عمبتحكي ) للمسنود باسم شخص مهم .

( رشرش حبك يا جميل ) لمن يطالبك ببضعة مئاتٍ أو الاف, ليقدم لك إمضاءه الثمين .

( و لك قرد ولو ) طبعاً لأي أخٍ من الطائفة العلوية، كلمةٌ تفتح كل الابواب المغلقة؛ لكن بضعة مفرداتٍ أيضاً كانت قد بدأت تخترق حاجز الصمت الأُسدي الذي بدى رقيقاً متخلخلاً تحت ظل حكم ( ولي العهد )...

( مصر ليست تونس ) ، ( سوريا ليست مصر ) ، ( العراق ) ، ( الكورد ) ؛

( الشعب يريد إسقاط النظام ) كتبها يدٌ طفوليةٌ جريئةٌ على جدران مدرسة...

كرامةٌ بدوية، و غباءٌ و همجية عسكرية، كانت بدايةً لملحمةٍ قوامها سيل دماءٍ سالت قرباناً لكلمة واحدة : (حرية) !.

ما الحرية ؟ سؤال دار و دار و دار، و لا زال يبحث عن جوابٍ له بين جنبات عقولٍ عشت فيها الخوف، و أخرى أزكمتها رائحة البنكنوت؛ في قصص ألف ليلة قصةً عن تجارٍ رماهم البحريين يدي قبيلةٍ من المتوحشين، يطعمونهم طعاماً يحولهم إلى خنازير ترعى كالماشية، عندها نسي التجار آدميتهم و ظلوا يأكلون و يأكلون و يأكلون حتى إذا امتلأ جلدهم دهناً و لحماً و سمنوا .. طاب ذبحهم و أكلهم .

( و لآك بدك حرية و لآك، إي هي الحرية خووووو )

( و الله ما إلي علاقة أنا، و الله ما إلي علاقة )

و أغني أنا من بعيد : " أذني الحاكم كأذني الحمار ! " : قصةٌ أخرى عن حقيقةٍ كتّمها صاحبها في حفرٍ في الغابة خشية أن تطال أذن أحد فينال منه غضب الحاكم، كانت حفرتي صفحات الفيس بوك، أكتّم فيها صراخي، و مع الوقت ... انتشر الصدى في الاثير و سمّوني معارضة، أو ناشطة، و في أوقاتٍ أخرى ( مندثة ) .

obeikandi.com

## الفصل الأول

obeikandi.com

دقاتٌ على الباب أوقظتني من سباتٍ يقظتي اليومي، و صوتٌ كهديل  
الحمائم ينادي :

- "أمي هل تأخرنا؟" طريقة ملاكي لتذكركني بأنني تأخرت .

- "حبيبتي أحضري لي حذائي لو سمحتِ " ناديتها بصوتٍ باسم قبل أن  
أطبق شاشة حاسوبي و أفتح لها الباب، رأيتها واقفةً و البسمة تضيء وجهها  
الصغير و حذائي الكبير في يديها .

- "شكراً لك يا أحلى أميرة".

تناثر الضوء على شعرها الطويل الذي كان مربوطاً بعناية بشريطٍ وردّي  
ليتماشى مع تنورتها الرقيقة و الأساور على معصمها؛ حبيبتي كانت دوماً  
أنيقة.

بضعة دقائق فصلتنا عن الشارع حيث بدأنا رحلتنا اليومية إلى المدرسة ,  
اليد الصغيرة في يدي كانت باردةً جداً، لا كهرباء، لا مازوت، لا تدفئة !

أسدلتُ كمّ معظفي على يديها الصغيرة فابتسمت و رمت لي قبلةً سريعة .

بووووووووم؛ لم يعد الصوت يخيفنا، لكنه ما زال يرسم على وجه كلِّ منا  
نظرةً قاسية، حتى الطيور ما عادت تخاف من الصوت، فعلى الرغم من قوة  
الدوي الذي ملأ الأرجاء إلا أن غراباً أو اثنين كان كل ما قد انطلق في السماء  
ناعباً؛ اشتقت لأصوات الصباح و لزقزقة العصافير ...

هبت نسمه شتائية باردة، فالتصقت بي طالبة الدفاء، فيما تراقصت حول  
قدمينا بضعة زهرات ياسمين ذابلة، ما كنا لنرى ياسميناً ذابلاً على الأرض من  
قبل، فأيدي الصغار والعشاق كانت تتسابق لتقطف البسمات البيضاء من  
على أكف الشجرة الحسنة، عربون حب و امتنان؛ الآن... لسبب ما، باتت  
شجرة الياسمين شجرة منبوذة، لا يكاد أحد يلقي بالاً إليها و لا إلى أزهارها،  
فيموت الياسمين مع قسوة الشتاء و الوحدة، من ينعي موت الياسمين، و  
البشر يموتون بعشرات الالاف !؟

لكن الياسمين صديقي منذ الصغر؛ اقتربت من شجرة و قطفت بضعة  
زهيرات و قدمتهم إليها، قرّبتهم من وجهها الملاك ... فما تدري أزد الزهر بشرتها  
جمالاً أم زاد جمالها الزهر جمالاً، ارتسمت على شفطها الورديتين بسمه حلوة

- "رائحتهم زكية جداً!" و لثمت يدي بطاعة، " لكن رائحة الفحم هذي  
مزعجة!"

مشيرةً إلى إحدى (تنكات النار) المترامية على جنبات الطريق؛ استطردت  
بغضبٍ خاطفٍ طفولي :

- " إنهم يقطعون الأشجار يا ماما!"

- " حبيبتي لا بدّ لهم من أن يتدفؤوا ليعيشوا!"

أحببتها و أنا أغضُ بصري الذي وقع على إحدى خيام النازحين  
البلاستيكية؛ أسرةً بأكملها تعيش على قارعة الطريق، لا يحفظها من البرد إلا

علبة معدنية يحرقون بها كل ما تطاله أيديهم من خشبٍ و ورقٍ و فحم؛ و كنت أحسب روايات الأدب الروسي قاسيةً و بعيدةً عن الواقع !

- " ليس كلهم يا ماما ... "

كانت تقصد بكلامها بائع الأخشاب الذي مررنا به؛ رجلٌ واقف على الرصيف مع طاولة، فأس و الكثير من الحطب .

- " أجل يا حبيبتي، هو أيضاً يحاول أن يعيش. "

أنا أعرف هذا الرجل بالذات، لقد كان مهندساً لامعاً في شركةٍ معماريةٍ كبيرةٍ ... لقد ... كان !.

انتشلتني من أفكاري بسرعة و هي تسحبنى بعيداً عن الرصيف نحو الشارع، فما عاد الرصيف يتسع لنا، بعد أن بات مكتظاً بالخيم البلاستيكية و ( الشوادر ) من كل شكلٍ و لون، بعضها يجلس فيها أطفالٌ و نساءٌ و شيوخ، لكن النسبة الكبرى منها كانت محلات بقالة، و لحوم، و منتجات تركية - تركيةً تحديداً - هذا هو السوق الذي كنا نقصده يومياً و نشترى منه على كل حال، فكل الأسواق الأخرى إما أنّها قد تهدمت و هجرت، أو أنّها تقع في خانة ما يسمى بالمناطق الخطيرة؛ تمرُّ بالمحلاتِ أو الخيم هذي، تنظر إلى البضائع فتفكر: " أترى سرقوا هذه البضاعة من مخيم لاجئين أم اشتروها منهم ؟ أترى هذا الثوب سرق من خزنة بيتٍ مُغتصبٍ؟ أترى هذه البضاعة أخذت عنوةً من صاحب مصنعٍ و هم يفرغون الرصاص في جسده؟ " و تشتري و أنت بالكاد تجد جواباً مريحاً تُسكِّت به صوت ضميرك: " أتراني ادفع نقوداً لمن سيقتلني غداً ؟ "

- "ماما، من أين جاء هذا بالماء ؟ "

كان طفلاً يحمل دلوين ضخمين من الماء يصارع ثقل وزنهما و صغر سنه كي يوصلهما إلى البيت.

- "من أين جاء هذا بالماء ؟ " كررت سؤالها بعند فأنا من منعها صباحاً من تنظيف أسنانها فالمياه مقطوعة منذ ثلاثة أيام و ما تبقى لدينا في ( الخزّان) بالكاد يكفينا للشرب؛ وفكرت كيف لي أن أشرح لها نظريةً تعلمتها أنا مؤخراً عن الآبار الجوفية الموجودة تحت مدينة حلب و عن فكرة (الجّب) الموجود تحت كثير من العمارات في منطقتنا، لكنني لم أجد طريقةً أشرح بها الموضوع لها بطريقةٍ تستوعبها بها أعوامها الستة، أخذتُ تهيدةً طويلةً و رددت باقتضاب :

"- من الجّب يا حبيبيتي ."

كانت تريد أن تسأل لكنها قرأت في وجهي أنني لا أريد أن أجيب، شدت قبضة يدها الصغيرة على يدي و تابعت السير، و بدأت تغّي أغنيةً فرنسيةً طفولية، ابتسمتُ و شاركتها الغناء و وصلنا إلى المدرسة و نحن نقهقه؛ سبحان الله ما أجمل عالم الصغار.

( ٢ )

وصلتُ إلى صَفِّي، وضعتُ حقيبتِي و معطفي و بدأتُ باستقبال الوافدين الصَّغار، كلهم يتشاركون ببسمةٍ جميلةٍ تزرع في القلب فرحاً لا يماثله شيءٌ في الدنيا...

" - صباح الخير "

"- صباح الخير يا أجمل عصفورة "

" - صباح الخير "

"- صباح الورد يا قمري "

"-صباح الخير"

" - صباح الفلّ، يالها من تنورةٍ جميلة ! "

مهما نهلتُ من بسماتهم البريئة، ما كنتُ لأرتوي فالله رزقي كل صباحٍ بنهرٍ من السعادة المقطّرة من أنقى ينابيع الحياة : الطفولة.

بدأنا كعادتنا يوماً حافلاً، و ما بين التلوين و الأغاني و الأسئلة و النقاشات مرت ساعات اليوم بسرعة ...

" - ما هي أحلامكم ؟ " سؤالٌ طرحته لأهمّده به طريقاً لشرح فكرةٍ جديدة .

" - أن أعود لبيتي "

" - أن لا تنقطع الكهرباء "

أن ... أن ... أن... كان للإجابات كلها طعمٌ مرٌّ في حلقي، لم يتمنَ أحدهم  
حذاءً جديداً، كرةً أو دمية، لم يتمنَ أحدهم مهنةً للمستقبل، لم يتمنَ أحدهم  
أيّ أمنيّةٍ طفولية، الكلُّ كان يريد أبسط حقوقه في الحياة، أن يعيش حياةً  
طبيعية، أن يشعر بالأمان؛ بلعتُ غصّةً كادت تخنق الكلمات في حلقي و  
اصطنعت بسمّةً كبيرة ...

" - الله يحبكم جميعاً و سيحقق لكم كل أحلامكم إن شاء سبحانه و  
تعالى، ما رأيكم أن نرفع أيدينا و ندعوه؟"

و هدأ قلبي عند رؤية الأكف الصغيرة تبتهل و ترفع الدعاء، هو يرى و  
يسمع و يعرف، سبحانه !

أكملنا دروسنا ما بين حروفٍ و أرقامٍ و أناشيد، أما الحصّة الأخيرة فكانت  
لتعريف الأطفال بالمهن المختلفة و دورها .

" - ماذا يستخدم الطبيب أثناء عمله ؟ "

بوو ..

أجل اعتدنا على أصوات الانفجارات، لكن هذا الصوت كان مختلفاً، كان  
قريباً جداً لدرجة أن باب الصّف المطل على الحديقة ارتجّ بقوة، العيون كلها  
اتجهت نحو الباب و فيها نظرةٌ خائفةٌ مترددة .

" - لونا أجيبيني ما أدوات الطبيب ؟ "

انتشل سؤالي لونا و من يجلس إلى جانبها من أفكارٍ كنت أعرف بأنّها  
ليست وريديّةً و لا طفولية، و نظرةٌ لوجه ثرى و نظرتها التائهة جعلتني أدرك



استدركتُ مهدوءٍ مصطنع، كان علي أيضاً أن أبعدهم عن الباب فالباب فيه زجاج وإن وقع انفجار ثالث فالشظايا قد ....

- " ما رأيكم أن نبتعد عن الباب قليلاً كي لا تصيبنا الرياح القوية بالزكام ؟" و كأنما كانوا ينتظرون إشارةً مّي ليبتعدوا بسرعةٍ عما صنفته فطرتهم على أنه مصدرُ الخطر: كررت مرة أخرى :

- " الريح شديدة اليوم !"

كنت أدرك بأنهم يعرفون، كلهم يعرفون الانفجارات و الاشتباكات و القصف و المسلحين و الجيش، كلها كلماتٌ وجدت لها مكاناً بين حصيلة مفرداتهم الطفولية إلى جانب قوس قزح و النجوم و الأزهار و الفراشات، إلى جانب الأشرطة الوردية و كعكة الشوكولا و الفراولة، إلى جانب باربي و فلة و سبايدر مان و جراندايزر و أبطال اليويو و ناروتو، كان هناك الدبابة و طائرة الميج و عند بعضهم الهاون و السكود كنت أعرف بأنهم يعرفون جيداً ماهية الصوت الذي سمعناه، لكنني كنت أعرف أيضاً أنهم بحاجةٍ لكذبةٍ يصدقونها و يتشبثون بها ليصلوا لإحساسٍ بالأمان و إن كان مزيفاً، لكن ... ليس من السهل اقناع الجميع .

" - هذا صوت انفجار"

"- الانفجارات بعيدةٌ عنا يا حبيبي ولا علاقة لنا بها "

و جاء تساؤلٌ آخر من طرف الصف الأبعد عن الباب الزجاجي :

- "ماذا نفعل لو جاؤوا عندنا ليقتلونا ؟"

- " حبيبتى هم بعيدون عنا ونحن معكم و لن نسمح لأحدٍ بأن يقترب منكم "

تعالى صوت عبودة أصغر عسافير صفى و هو يعلق لاهثاً ليعبر عن ثقة ابن الثلاث سنوات بعالم الكبار :

- " لن يدخلوا، إن دخلوا هنا ستأتى الشرطة و تأخذهم ! "

لم أتمكن من الابتسام، على الرغم من طفولة تعبيره إلا أن المشاعر الأخرى كانت أقوى من أي وصف.

" - لنغني أغنية حلوة " للأغاني و الأناشيد وقع السحر على الأطفال " ماما .. ماما .. ما احلاها لا تحلو الدنيا لولاها" ....

بدأ الأهالي يتوافدون مبكراً لاصطحاب أطفالهم إلى البيت و على وجوههم قاسمٌ مشترك، إصفرارٌ شديد، و نظرة خوفٍ و قلق، ترمى إلى مسامعي بضعة كلماتٍ مضغها الخوف و التردد قبل أن تُفلى من شفاه أصحابها : (المدينة الجامعية ... ) (عشرات القتلى...) ( طائرة ميغ ... ) ( قذيفة ... ) ( الطرق مقطوعة...)

دخلتُ إلى صفى بهدوء، معطفها الأبيض أقلُّ شحوباً من خديها الرقيقين، و تموجٌ في عينيها الخضراوين الساحرتين نظرة مؤلمة، ابتسمتُ لها فردت الابتسامة بأخرى مهزوزة، منحتها حضناً طويلاً، عليّ أمنحها به شيئاً من الأمان و السكينة .

- " أحبك "

- "أحبك أكثر"

خرجنا من باب المدرسة و اللّغط في كل مكان و تترامى لك أحاديث المارة بادئهُ بـ "لا حول و لا قوة إلّا بالله" و مختتمهُ بـ "تعينا .. لقد تعينا!"

- "ما رأيك أن نمشي من هناك لنرى ما حدث؟"

سألتهما مشيرةً للاتجاه الذي جاء منه صوت الانفجار، الطريق المؤدي لأكبر تجمعٍ للنازحين في مدينة حلب: المدينة الجامعية

- "لا ماما .. لا أريد!"

شدّت يدي و نظرة الرعب تقفز من عينيها، كم أنا أنانية! أيّ مشهدٍ أريد أن أطلعها عليه!

استدرنا للاتجاه المعاكس و مشينا في طريقنا نحو المنزل.

كنت أعلم بأنهم سيضربون المدينة الجامعية بعدما اكتظت باللاجئين، هم يستهدفون التجمعات السكنية، الحداثق في الأعياد، الأسواق في ساعات الازدحام، و طبعاً المدينة الجامعية كان قصفها مجرد مسألة وقت، خصوصاً بعد توزيعهم لمنشوراتٍ تطالب النازحين بالعودة إلى بيوتهم التي صارت "أمنة": "يبدو أن سرعة سقوط ثكناتهم جعلتهم في حاجةٍ للمزيد من المساحات، لكن هههات! لا تفجيريّ و لا عشرة تفجيرات ستُخلي هؤلاء الناس! ."

و فيما أنا غارقةٌ في الأفكار سحبتني من يدي مجدداً لتبعدني عن الرصيف إلى الشارع، نظرتُ لها مستغربةً فقد ابتعدنا عن منطقة الأسواق و في الرصيف متسع لنا، لكنها التصقتُ بي مختبئةً خلفي، تابعتُ نظراتها حتى

وصلتُ إلى قطة ... مجرد قطة! لم أكن يوماً أخشى القطط .. إذا جاز لي أن  
أسمي الكائن الذي مررنا به قطة، بذيلها المقطوع و فكها الأجرد و بقايا الدم  
على أقدامها و ذقتها، لم يكن ذلك ما أخافني، لكن ما جعل القشعريرة تسري  
في جسدي كانت نظرةً في عيون القطة، نظرةً متوحشة، كأنها تقول لك "لقد  
سبق لي أكل أشلاء من هم مثلك!"

درنا في دائرةٍ حول القطة و نحن نراقبها، فيما هي ترمقنا بنظراتٍ جائعةٍ  
مخيفة، و لم ترتح صغيرتي أمل و تبتعد عني حتى تجاوزناها بمسافةٍ لا بأس  
بها ..

"إش ما عندك ولاد!" علا صوت الرجل المسن الذي مررنا به، نظر له  
البائع الذي كان يخاطبه نظرةً فارغةً و هو يحمل كيس الخبز بين يديه؛  
أخفض المسن رأسه بانكسار و سحب الطفل الواقف إلى جانبه من يده و  
أكمل طريقه في الاتجاه المعاكس و هو يتمم بكلماتٍ غير مفهومة، لمحتُ دمعاً  
ترقرقت على وجنة الطفل، مسحها بكمه بسرعةٍ و كبرياء، و واصل مشيه مع  
الرجل المسن .

وصلنا إلى البيت، كالعادة، كان كل شيء يبدو باهتاً كئيباً في الظلمة التي لا يكاد يكسرهما الضوء الشتائي الشحيح المتسلل من النوافذ، والبرد الذي يكَلِّل إحساسك التام بالوحشة والهجران .

دخلتُ رأساً إلى غرفتي لأنجز بضعة أعمالٍ كتابيةٍ عليَّ أن أنجزها قبل أن تغرب الشمس، ونغرق في الظلمة الحالكة التي لا يمحيها إلا أنوار شمعةٍ توزع نورها الضعيف بتردد مرتعش، إذ تكاد تخجل من ضحالة نورها، فتدوب على عجلةٍ لتسجد يائسةً أمام رهبة الظلام .

انتهيت من عملي بسرعةٍ واندستت في سريري، لم أتمكن من النوم لشدة البرد، ذهبتُ إليهم لأجدهم جالسين يتلون بعض سور القرآن، وجوههم الطيبة تفيض نوراً وبشراً.

"بسم الله الرحمن الرحيم - أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ {١} وَ وَضَعْنَا عَنَتَكَ  
وَوَزَّرْنَا لَكَ {٢} الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ {٣} وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ {٤} فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا  
{٥} إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا {٦} فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ {٧} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ {٨}  
صدق الله العظيم "

إن مع العسر يسرا ... ترى الله كان يعلم بما سنمر به فأرسل لنا آياته لتنزل سلاماً على نفوسنا الجريحة ؟ سرحت في بحرٍ من الأفكار وأنا استمع للأصوات الملائكية، تارةً أشاركها، وتارةً أصغى لها باستمتاعٍ وأنا جالسةً على كرسيي المعتاد، طالبةً بعض الدفاء ليدي في الصوف الذي أحيكه شالاً لأميرتي الصغيرة، لتغطي به أنفها الصغير من لفحات البرد :

لم أنتبه إلى أن الأصوات قد هدأت إلا وهي تسحبني من يدي

- "أمي أنظري... " قالت لي وبسمة فخرٍ تشعّ لتملاً وجهها الجميل، نظرتُ لسبورتها حيث رسّمتُ رسماً طفولياً جميلاً، وقبل أن أسألها بادرني بالشرح

- "هذه أنتِ يا ماما تحملين قنينة ماءٍ ساخنةٍ كي تتدفئي، و هذا جدي يحمل كوباً من الشاي ليدفئ به يديه و وجهه .. "

- "و أين أنتِ يا حبيبتي؟"

فردت مبتسمةً

- "أنا مختبئةٌ تحت الأغطية على سريري"

أيّ ثقافةٍ منحتم لأطفالنا! سعيدو الحظ منهم لديهم أغطيةٌ يختبئون تحتها من شدة البرد، موسيقاهم أصوات المدافع، مفرداتهم البنادق و القصف، يرتعبون من صوت الطائرة بدلاً من القفز فرحاً لرؤيتها، ويسألون لو كان قوس قزحٍ دخان طائرةٍ حربيةٍ ... أيّ ثقافةٍ منحتم لأطفالنا و حلمهم بيتهم و بعض الدفاء و شيء من الحنان! أيّ ثقافةٍ منحتم لأطفالنا و المدارس تُقصّف و الأطفال يتعلمون كيف يمشون ملتصقين بالجدران خشيةً من رصاصة قنّاص! أيّ ثقافةٍ منحتم لأطفالنا و "جرّة الغاز" هو ما يتمنون توفّره في الجنّة! ثقافة الحرب!

همستُ لي بصوتٍ مرتعد ..

- "أمي أنا بردانة."

اقتربت منها و حضنتها عليّ أمنحها شيئاً من دفاء جسدي، لكن جسدي كان أشد من جسدها برودةً، ووضعتها على سريرها و وضعت فوقها من الأغطية أربعة، و أحضر جدها قنينة المياه الساخنة، و ما هي إلّا دقائق حتى خلّدت إلى النوم، و على الرغم من شدة البرد، أحسست بناٍرٍ تشتعل في قلبي و رأسي، ارتديت معطفي و خرجت إلى الشرفة، الظلمة تتلاعب بأغصان شجرة الياسمين و الجاردينيا تشتكي من قلة المياه، أما شجرة الفلّ فكانت ترمي أوراقها على الأرض في مناجاةٍ هادئة كما تعد العاشقة أوراق زهر الأقحوان " سنتحرر .. لن نتحرر .. سنتحرر .. لن نتحرر "؛ خيالات ضوء القمر تراقص على الأرض بسخافة، فالقمر باهتٌ لا لون له، و السماء ملبّدةٌ بالدخان و الغبار، أما النجوم فكانت تراقب من بعيد بصمتٍ مستفز، عتمة مدينةٍ تنام في ظلمة يومية، انحدرت دمعَةٌ من عيني .. رباها! ألهمنا الصبر!.

استيقظت فجراً على صوتٍ لم أسمعهُ منذ مدّة، صوت مياهٍ سارية، ركضتُ إلى الحمام متعثرةً و النوم يملأ عيني لأرى صنبور المياه المهجور منذ أكثر من أسبوع ينبض بالماء و الحياة، حمدتُ ربي على استيقاظي باكراً و بدأتُ رحلة تعبئة المياه في كل ما يصل إلى يدي من أوعيةٍ و قناني، هذا للطهو و هذا للتنظيف و هذا للغسيل و هذا .. و هذا .. و هذا .. و بعد ان اطمأننتُ لوجود ما يكفي من مياه، أيقظتُ جميلتي بقبلةٍ على خدّها

- "أمل حبيبتي ألا تريدن تنظيف أسنانك؟"

كانت تحب تنظيف أسنانها لتتباهى أمام معلمتها و رفاقها باتباعها لقواعد النظافة و اللياقة، فتحتُ عينها غير مصدقة

- "أعادت المياه؟؟"

هززت رأسي باسمه و استمتعتُ بعدها بخمس دقائق متواصلة من صرخات البهجة و القفز في كافة أنحاء الغرفة، أنهتها ثم ركضت إلى الحمام لتغسل يديها و وجهها و أسنانها، نادتنى من هناك سائلةً:

- "هل بإمكانني طرد المياه من المرحاض؟"

- "نعم يا حبيبي يمكنك ذلك."

عدة صرخات بهجةٍ أخرى تلت إجابتي، ثم جاءت لعندي سعيدةً كاشفةً عن أسنانها لتريني نتيجة عملها، و على الرغم من التسوس الذي غزى بعضاً من أسنانها اللبنية الصغيرة، إلا أنني قلت لها كالعادة بأن أسنانها لامعةٌ جميلة، فرحتُ و بدأتُ بترتيب كتبها و ارتداء ثيابها لتكون جاهزةً للمدرسة، و مثلها فعلتُ.

بعد الرحلة اليومية المعتادة وصلنا للمدرسة، توجهتُ إلى صفها و توجهتُ أنا لصقي، و بدأنا يوماً جديداً مليئاً بالتفاؤل و الأمل و بسمات الأطفال المنعشة، كان يوماً جميلاً، على الرغم من انزواء ثرى و توقعها النفسي التام بعد تفجير البارحة، و على الرغم من بعض الآثار النفسية التي لاحظتها على أغلب الأطفال إلا أن اليوم كان جيداً، ممتعاً كالمعتاد .. الأطفال زينة الحياة !

( ٤ )

مرّت الأيام متتابعةً متشابهة، ما بين انقطاع الاتصالات و انقطاع الكهرباء و انقطاع المياه...

- "لا تقلقي هم في سبيلهم لقطع الهواء عنّا أيضاً" قالتها زميلتي بسخرية قاتلة , ثم استأنفت رداً على نظرتي المتسائلة

- "عندما سيستخدم السلاح الكيماوي."

إحدى المفردات الجديدة التي بدأنا نلوكها تحت وطأة القلق و الترقب، "السلاح الكيماوي" كانت في البداية تُنطق بغضبٍ و استنكارٍ و تعجّب، و بعد عدة مرّات رأينا فيها أثر ذلك السلاح العجيب على مناطق منكوبةٍ مختلفة، أدركنا أنّها على الرّغم من قسوة تأثيرها إلا أنّها ليست أخطر ما نخشاه .

لم أنس نشاطي الفيسبوكي، فكنت كلما سنحت لي الفرصة أنشر عباراتٍ ساخطة:

" يلعن روحك يا حافظ "

" الحرية جاية جاية "

" الله محي الجيش الحر "

ما كانت إلا محاولاتٍ مني لتنفيس شحنة غضبٍ و حنق، و تأكيدٍ على انتمائي "للمعسكر المعارض" كما باتوا يسمونه مؤخراً، و كم كان يسليني وصف البعض لي بالمجنونة .

أما جميلتي الصغيرة فكانت تدّخر ساعات الكهرباء لتقبع أمام التلفاز  
تعانق عيناها أضواء الشاشة الملونة بشغف .

أسرت لي مرةً بمرارة، محاولةً كظم دمعَةٍ تفرقت في زاوية عينيها:

"- ماما ... شكل البيت كئيبٌ عندما يغزوه الظلام، و أحسّ في بعض  
الأحيان أنني سأبكي بلا سبب ."

الأيام كانت تمضي متشابهةً كئيبة، أصوات الانفجارات اليومية، أخبار من  
ماتوا و من اختفوا، معارك و أسماء جديدة، كُرّ و فرٌّ و فرٌّ و كرّ، و اللعنات  
المصبوبة على كلِّ من الطرفين؛ بدأ برد الشتاء ينقشع، و لم ينجح تطاير  
الفراشات البيضاء، و لا تفتح بعض الأزهار البرية على قارعة الطريق بأن يمنح  
المدينة شيئاً من البهجة أو الجمال، فبدت زينة الربيع كبقعةٍ من الطلاء على  
وجه مومس، تحاول أن تخفي تحتها قلباً ميتاً ووجهاً بلا ملامح .

في هذا الجو الثقيل المشبع بالحسرات على أيام مضت، و التطلع إلى  
مستقبلٍ مجهولٍ غائم ... رأيته ... لم يتغير كثيراً، إلا من بضع شعيراتٍ فضيةٍ  
غزّت صدغه، نفس النظرة الهادئة، الأنف الأشمّ و العينان الضيقتان، لم يتغير  
كثيراً.

لكن ما صعقتني كان الوحش الأسود الجاثم على كتفه، كان يرتدي بذلةً  
عسكرية، و يحمل على كتفه بندقية، و على رسغه استقر رباطٌ .. أسود ..  
أبيض .. أحمر .. و قبعت في وسط اللون الأبيض نجمتان خضراوان، تنظران  
لي بسخريةٍ و استهزاء ...

نعم، هو يرتدي علم جند الأسود، هو أصبح من جند الأسود.

أفكارٌ كثيرةٌ عصفت برأسي، و ما بين إعصار الذكريات و طوفان الأسئلة  
أحسست بقدماي لا تكادان تقويان على حملي، نبضات قلبي تسارعتُ بشكلٍ  
جنوني.

بضعة خطواتٍ فقط .. بضعة خطوات!

و بقوةٍ جبارةٍ أرغمت نفسي على أن تلبس رداء الهدوء، حتى وصلت إلى  
شارعٍ متفرّعٍ قريب، دلفتُ فيه بسرعةٍ قبل أن تلحظني عيناه اللتان كانتا  
تفتشان بلا مبالاةٍ في حقيبة سيدةٍ مرّت أمامه .

عمّ كان يبحث؟ عن أسلحة ؟ عن قنبلة ؟ أم عن قلبٍ جديدٍ يسحّقه ؟!

ما هي إلا خطواتٌ حتى أحسستُ بركبتاي تهاويان، دخلت إلى أقرب بناءٍ و  
افترشت إحدى درجات سلّمه، تأكدت من أن أحداً لا يشاطرنى خلوتي هذه، و  
أجهشت بالبكاء، لم أدركم بقيت على هذا الحال... دقائق ... ساعات ... كنت  
أغسل روحي المعذّبة بسيلٍ من الدموع، أحسستُ بفيضٍ من الاستسلام يسري  
في عروقي، و بالحياة تتسرب من بين مسامي، هدأت فجأةً كما انفجرتُ فجأةً.

خرجتُ من البناء متابعَةً لطريقي، غنيٌّ عن القول أنني اتخذتُ لي طريقاً  
مختلفاً لا يمر بالحاجز الذي يقف عليه .

شيئاً فشيئاً تماكنت نفسي، و انتابتني نوبة حنقٍ رهيبه، كيف أنهارُ هكذا؟  
بهذه البساطة! بعد كلّ هذه السنوات ! أنا! المرأة التي صارعت قسوة الحياة  
بأيديها العاريتين، أنا التي خرجت منتصرةً من كل المعارك النفسية التي دخلت  
فيها، كيف لي أن أحمل في ثنايا قلبي كل هذا الضعف !

أدركتُ بأن فجوةً ضخمةً تقبع في داخلي، فجوةٌ قد هربتُ منها مرةً لأنني لم أجدُ التعامل معها، وها قد حان الوقت! حان الوقت لخطِّ حروف كلمة النهاية على واحدةٍ من أصعب قصص حياتي، قصتي مع سمير .

أخرجتُ من حقيبتي مرآةً صغيرةً مزخرفةً بنقوشٍ جميلة، مرصعةً ببضعة أحجار لامعة مشكّلة على هيئة قلب، وتسلفت لشفتي بسمّةً وأنا أذكر كلماتها وهي تهدئها في عيد الأم

- "أحبك يا أحلى أمِّ في الوجود، وإن كان هناك أمُّ أحلى منك فأنا لا أريدها، لا أريد أمًّا غيرك أنتِ."

ذكراها كانت الترياق الذي احتجت له، ليزيدني قوة، ليذكّرني بأنني قد وصلتُ إلى برّ الأمان في اللحظة التي حضنتُ فيه كَفَّها الصّغيرة في يدي لأول مرة، ليذكّرني بأنني قد أدركتُ مغزى وجودي بوجودها، أنا قويةٌ اليوم، قويةٌ بها .

فتحتُ المرآة الصغيرة وتأكّدتُ من مسح أيِّ أثر للدموع على وجهي، هذه المرة كانت عينايتي تشعان قوةً وتحدي، رفعت رأسي بثقةٍ واعتداد، إستدرتُ على عقبيّ وعُدتُ للمواجهة التي كنت قد هربتُ منها منذ إحدى عشرة سنة، اليوم ما عُدتُ سهام الرقيقة كزهرة ياسمينٍ ضعيفة، أنا اليوم .. أم أمل! أحسستُ بقلبي يهتف بهدوءٍ وحنان "أحبك يا أمل، يا ملاكي الحارس ."

بمجرد أن خرجتُ من الشارع الفرعيّ متجهَةً نحو الحاجز لاحظتُ غيابه .

أخذتُ أجولُ بعينيّ في كلّ مكانٍ على الحاجز، في بيت الحارس، خلف جبل الأكياس الرّمليّة الساترة من الرصاص، حتى أنني بدأتُ أتفحص أسطح الأبنية المجاورة، لكنني لم أجد له أيّ أثر! خطواتُ تفصلي عن الحاجز ولا أراه ! .. أتراني قد هيأت لي عينايا ما قد ظننته هو ؟ أتراني توهمت وجوده بسبب رواسب نفسية عالقةٍ في روحي ؟

رَنأتُ على جهازي المحمول قطعت سيل أفكارِي، مددتُ يدي لجيبي ورفعته بشكلٍ لا إراديٍّ أمامي لأنظر لرقم المتصل، لكن أصابعي كانت قد ضغطت على زر الاقفال و أنا أستخرجه من جيبي، لعنتُ الجيوب الضيقة و الهواتف المحمولة الغبية في سري، و أنا ابحث دون جدوى عن رقم المتصل بين المكالمات الفائتة ...

- "شوما تصوّرين؟"

أجفلي الصوت الخشن و اللكنة الساحلية التي ارتبطت في لا وعي كل سوريٍّ بإحساسٍ خفيٍّ بالخطر، كان رجلاً قصيراً أمرداً بلحية سمراء كثّة، ينفخ أوداجه و يقف وقفة المعتد بنفسه، عينان حمراوان و أسنانٌ قد اصطبغت بلونٍ أصفر كالح، غالباً لإدمان صاحبها على شرب "المثي"، بذلته العسكرية تكبره قياساً حتى أنه اضطر أن يطوي بنطالها عدّة طياتٍ ليسمح لـ "البوط العسكري" خاصته أن يبرز من تحته ..

أجبتَه بأني لا أصوّر شيئاً فسحب الجهاز من يدي و أخذ يقلّب فيه حتى وصل إلى ملفات الصور، و أخذ يقلّب فيها، صوري مع والدي، مع زميلاتي، صوري معها، و الأهم صورها .. صور أمل ! من أنت! من أنت لتطلع على صورنا !

- " أنتِ من هذه المنطقة ؟ "

رمى كلماته بلا مبالاةٍ وقحة، وهو يتابع تأمله في خصوصياتي

- "نعم أنا من هنا .. وأنتِ؟! "

أجبتَه بجرأة، لم يحر جواباً، تجاهلي بشكلٍ كامل، غلى الدم في عروقي، كنتُ أدرك فداحة الاشتباك في جدالٍ لفظيٍّ سرعان ما يتحول لكارثة، كنت أعلم أنني لست على صفحات الفيس بوك، كنت أعلم بأني في موقفٍ حقيقيٍّ أمام من يمكنه أن يلغي وجودي في ثوانٍ، لا بل يمكنه أن يوصلني لمرحلةٍ أتمنى معها إلغاء وجودي! . لكنني لم أبالي بكل ذلك، و أنا أسحب جهازي من يده قائلةً:

- "لوسمحت هذه صورٌ شخصية !"

كشّر عن أنيابه و لمس سلاحه بيده محاولةً منه لتذكري بأنه في موقف قوة، لم يكن بحاجةٍ لأن يذكّرني ...

- "هذا تفتيشٌ روتيني ."

- "لماذا تفتشني؟ أتراني إرهابياً خطراً؟! أنا ساكنةٌ في هذه المنطقة، عائدةٌ

إلى منزلي بأمان ! انت العنصر الوحيد الدخيل في الصورة!"

تحرك السلاح من كتفه إلى ذراعه، النظرة في عينيه باتت قاتمةً مخيفةً ..

- "هذه منطقةٌ عسكرية، وأنا هنا لتأمينها من كل من أشتبهُ به؟"

لم أبالي بنظرته، ولا بفوهة البندقية التي وجهها إليّ، و هتفتُ بكل الغضب المتجمع في قلبي، و لكأني أتقياً كل السواد و المعاناة التي فُرِضت علينا منذ قرّر سيدهم ان يلتصق بكرسيه و يحارب " المندثين " و "الـ الجرائيم"

- "منطقةٌ عسكرية؟! منطقةٌ عسكرية؟!"

أشرتُ بيدي بعصبيةٍ إلى أقرب نافذةٍ تقف خلفها سيدهُ مستهً تراقب المشهد بفضول، و أكلمتُ بغضب ..

- "ما دام في هذا المنزل أناسٌ مدنيون، ما دمتُ أنا مدنيّة، ما دمت أنت في مدينة، فما أنت في منطقةٍ عسكرية، و كلما فهمت هذا أسرع كلما كان أفضل لك و لنا، و كلما خفّت معاناتنا و معاناتك، حريٌّ بك أن تعود إلى منطقتك العسكرية حيث يوجد من تجيد التعامل معهم، عدُ لحيث تنتمي و اتركنا بأمان !

- " و لك شو ما تقولين إنتي؟! "

كانت لكنته واضحةً جداً، مستفزةً جداً، متعاليةً جداً، رفعتُ رأسي عالياً، و على الرغم من انطلاق ألف صفارة إنذارٍ في أذني معلنةً عن ارتفاع ضغط شراييني، و على الرغم من الانتشار المكثف للأدريينالين في كل شبرٍ من جسمي، لكنني ما كنت لأعبأ بشيء، و تابعت بهدوءٍ مصطنع، و نظرةٍ تقطر غضباً و كراهية :

- "أنتَ سألتني إن كنتُ من هنا، نعم أنا من هنا، ونعم أنتَ لستَ من هنا،  
إذاً فمكانك ليس هنا!"

أقحم السلاح في كتفي ودفعتني بقسوةٍ و الشرّ يقفز من عينيه

- "تعالى إلى الضابط ليرى ما قصتك!"

أحسست بأعصابه تتوتر، وبنظراته تزيع، أحسست بفخرٍ يلهو بكل أفكارى،  
إن لم يفهم قبل اليوم فقد فهم الآن، نحن لا نطيقهم ! أحسستُ بيديه  
تنشبتان بسلاحه أكثر و بجسمه يتشنج، لقد فقد السيطرة على أعصابه، لكن  
شيئاً لن يوقفني!

- "إذا أراد ضابطك أن يراني فليأتِ إليّ، لستُ أنا من يذهب إليه!"

لمحتُ بارقة جنونٍ تطوفُ في عينيه، وبدأتُ نقطُ من العرق البارد تسري  
على طول ظهري و أنا أرى عضلاته تتقلص منبئةً بحركةٍ عنيفةٍ قادمة، بدأت  
الدنيا بالاهتزاز أمامي، رسمتُ ضحكة تحديّ على وجهي، ألف صوتٍ في عقلي  
يصرخ "اعتذري" .. "اهدأي" .. "اهربي" .. فرد قلبي المجنون " أنا سورية ... أنا  
حُرّة!"

في تلك اللحظة ألقى بيده على كتف الوحش الذي كان يستعد لاقتناصي؛  
انحنى ليصل بفمه إلى مستوى أذن القبيح المريد و همس له ببضعة كلمات،  
لست ادري ماذا قال له، لكنه رمانى بنظرةٍ ناريةٍ و بصق على الأرض و ابتعد  
بضعة خطواتٍ ووقف يراقب من بعيد.

- "ما زلتِ مجنونةً كما كنتِ!"

جاءني صوته كسلسيل ماءٍ باردٍ بعد تجربتي المجنونة، وعلى الرغم من أن صوته كان آخر صوتٍ أودَّ سماعه، لكن كان له وقع النغم على أذني، لا بد من أن أسعد بسماع صوته في موقفٍ كهذا فقد كتب لي عمرٌ جديد ! استأنف مخترقاً صمتي ..

- "كنت أبحث عنك، فما أن لمحتك من بعيدٍ حتى اختفيت فجأةً ! أين كنت؟"

قال هذا وهو يأخذ خطواتٍ واثقةٍ مبتعداً بها عن الحاجز مشيراً لي أن أصحابه ترددت لثوانٍ، أأريد حقاً أن أمشي معه مجدداً؟ هو .. سمير.. الذي حفر في تاريخي سنين عذابٍ لا تُنسى و غير خريطة قلبي إلى الأبد ! بهذه البساطة يشير لي و أتبعه؟! لكن نظرةً للحارس الواقف على بعد بضعة أمتار، اضطررتني لأن أحزم أمري بسرعة، أسرع بخطواتي و أنا ألحق به متأملَةً منكبيه العريضين و البذلة العسكرية التي بالكاد تتسع لهما، تلاحقت خطواتي حتى لحقت به و صرت أمشي بمحاذاته، أطرقتُ رأسي و اختبأتُ خلف سورٍ منيعٍ من الصمت ...

قدماي كانتا تتحركان تلقائياً في إيقاعٍ صامتٍ مع حركة قدميه، و على الرغم من كل محاولاتني المستميتة للبقاء على أرض الواقع إلا أن الذكريات كانت أقوى، عصفت بي و حملتني لمقاعد الجامعة ..

- " لو سمحت يا آنسة ... هل لي أن أستخدم دفترك؟"

وقبل أن أنبس ببنت شفة، كان قد فتح الصفحة الأولى و كتب رقمه ثم استدار نحو صاحبه

- "أجل القلم لازال فيه حبر، أوماً لي ضاحكاً و اتخذ خطوتين في سبيله  
للابتعاد قبل أن أبادره:

- "لو سمحت!" إستدار مستغرباً

- "لقد نسيت بقعة حبرك."

قصصت الورقة و وضعتها على الطاولة و سرت مبتعدةً وسط ضحكات  
زملائه و همسات زميلاتي..

مع تلاشي صورة المقاعد و وجوه الأصحاب من ذاكرتي رفعتُ عيني و  
نظرت له، التوتر كان قد رسم على وجهه لوحةً لا تخطئها عيناى، و يطلُّ من  
عينيه شبح الذكريات ذاته الذي كان يغتصب روحي، بل كان يغتصب روح كلِّ  
منا، هاتان العينان السوداوان كانتا تموجان بالعواصف، و التردد .

عدتُ لإعصار ذكرياتي لأرى ذات العينين رائقتين كليلة صيف، تطلُّ منهما  
نظرةً قويةً تشعُّ ثقةً و إقداماً، لن أنسى ما حييت تلك النظرة المصممة  
مرسومةً كلوحة إله إغريقي يحيط بها إطارٌ من الأهداب السميكة المقوسة ..

- "لو سمحت ... لو سمحت ... أنسة سهام."

استوقفني و أنا أعبر خارجةً من محاضرةٍ منعبة، متجهةً للمكتبة لأرتب  
أوراقى و أفكاري، محمّلةً بالكثير من الدفاتر و الكتب، استدرت ممتعضة، من  
هذا الذي يناديني باسمي؟ نظرت له و أنا أقوس حاجبي باستنكار لم تتغير  
النظرة التي في عينيه بل ازدادت تصميماً و إن غزاها شيءٌ من الاستمتاع، هي  
قطعاً لعبة الرجال المفضلة منذ أقدم العصور ... الصيد!

- "إسمك سهام أليس كذلك؟"

وددت لو أعنفه، أزجره، "مالك و مال اسمي؟" كانت أول جملة وردت في خاطري، لكن شيئاً في عينيه كبّل لساني تماماً و شكّ أفكاري، سحبت عيني من عينيه بصعوبةٍ و أومأت برأسي، بالكاد أتمكّن من التقاط أنفاسي، ما هذه النظرة؟! تابع لعبته بثقةٍ و مهارة ..

- "لا يخفى عنك أنني معجبٌ بك، الجامعة كلها تعلم ذلك."

كنتُ قد سمعت الكثير من الأحاديث الهامسة، تجمع بين اسمه و اسمي، و ما أن أقترُب حتى تخفت الأحاديث و يحل محلها نظراتٌ مستطلعةٌ متوقّبة، حملت لي صديقتي المقربة بضعة كلمات منها "يتابعك دوماً" "يسأل عنك في كل مكان" "يترك محاضراته لينتظر مرورك و أنت خارجة من محاضرتك" لم أكن لأرد على كل هذه الترهات، قد سمعتُ من هذه القصص الكثير، كلها كانت تنتهي بفجيعةٍ و قلبٍ محطم، و علاوةً على هذا فأنا هنا لأتعلّم، أتعلّم فقط !

كانت عيناه تسرحان في وجهي و لكأنه يحاول أن يقتحم أفكاري و يستمع لأحاديث روجي، و حين عجز قرر ان يرمي بقنبلته الأخيرة

- "الواقع أنني احبك!"

وقع تلك الكلمة كان أضخم من أن أتمكّن من تجاهله، فكل فتاةٍ في الدنيا تحلم بهذه الكلمة بطريقةٍ أو بأخرى، لكن التلقائية الصادمة و السرعة المهولة التي رماها بها كانت أكثر من أن تحتمله أعصابي الباردة ..

تناثرت كتبي و أوراقى فى كل مكان، و المشهد التالى كان مشهداً سبق و شاهدته فى ألف فيلم، و قرأتُ عنه فى مليون روايةٍ و قصة، يدان تلتمسان، كتابٌ يقع، و قصةٌ حبِّ تبدأ، كنت أتأقّف لتفاهة الفكرة، و أحسُّ ببلادة تكرارها، يومها لم يكن لىدى وقتٌ للتأقّف، حبلاً من نارٍ طاف على طول ذراعى، و امتدَّ بهدوءٍ ليغزو قلبى، و عندما لمست شفتاه يدي، تضرع قلبى، و رفع كل رايات الاستسلام .

سحبت نفسى عنوةً من سحابة أفكارى، نعم قصتنا كانت تقليديةً فى بدايتها، تقليديةً فى تفاصيلها، تقليديةً حتى فى نهايتها ... ككل قصةٍ على الفتاة أن تندها تحت رماد النسيان، لماذا كان له أن يعود إلى حياتى؟ و لماذا الآن؟ و هكذا !! أجلت عيني فى زيه، الزيُّ الذى تعودت على مدار عامٍ كاملٍ أن أزدريه، و سؤالٌ ضخماً يتلعب كل حواسى رويداً رويداً ... لماذا !؟

ليس فقط لأنني كنت أحاول جاهدةً أن أهرب من طوفان الآمي، ليس فقط لأن الذكريات السعيدة تصبح مرتعاً للألم عندما يُطبع عليها كلمة "ماضي"، ليس فقط لأنني كنتُ أحاول أن أحافظ على رباطة جأشي أمامه، بل لأن ما قد تنهى إلى مسامعي كان أحبُّ الأصوات إلى قلبي، صوت ضحكات الأطفال ...

الجو كان مشمساً زاهياً، و الحديقة كانت تضحُّ بالأطفال، بكُراتهم و زلاجاتهم و دماهم و أغانيهم و أصواتهم، تتراقص الفراشات البيضاء حولهم بمرحٍ زاهٍ، فتتبعها أكفهم الصغيرة بشوق، و تشعُّ ثيابهم الملونة جمالاً لترسم لوحةً مثاليةً للحياة .

اللعبة المفضلة للفتيان، " الدبابة " امتلأت بجنزالات الحرب الصغار، يتسلقون و يقودون معارك وهميةً رسمها خيالهم الخصب، استقوا شيئاً من تفاصيلها من واقعٍ يقرع مسامعهم يومياً، أو من قصص الأخبار على شاشات التلفاز القاتمة، لا مكان للقلق في وجوههم البريئة، سعادةٌ خالصةٌ كانت تقطر من الأحلام الفتية .

أما الفتيات فكانت الأرجوحة زميلتهن منذ الأزل، يعتلونها و يدفعن بأرجلهن الصغيرة في الفضاء، محلقاتٍ بحريةٍ و القهقهات تتناثر من حناجرهم، فيما تتراقص الضفائر السوداء، الخصلات الشقراء، و الأشرطة الملونة وراءهم في رحلةٍ لاهثة .

قطعاً هي اللعبة المفضلة لدى أميرتي الصغيرة، تمنيتُ لو أنّها كانت معي لتستمع بهذا الجوّ الجميل، ولتغمرني بضحكاتها وصرخاتها و هي تجول في أرجاء الحديقة بلهفة، محاولَةً إفراغ شيءٍ من طاقات الطفولة، طاقاتٌ لا تتمكن كل أبواق الحرب وآلاتها من أن تنال منها !

طبعاً لو كانت معي ما كنت لأراه اليوم، فهي باتت ترفض المرور بأي حاجز، كنا لنسير عوضاً عن ذلك في الطريق الذي يحلو لها أن تدعوه " طريق الكلاب " و هي تسميةٌ أتت من كلبين بوليسيين أسودين، قابعين على جانبي الشارع ليحميا أحد مراكزهم اللعينة، الثياب العسكرية المدجّجة بالأسلحة كانت تزعجها أكثر من كلبين يفوقهما كلٌّ منهما طولاً، ردّت أمام حيرتي يوماً بأن وحشية الكلاب كانت بالنسبة لها منطقيةً و مفهومةً على عكس وحشية البشر، و بأن الأسنان و الأنياب لم يكونا ليخيفانها أكثر من الأسلحة .

فتاةٌ حكيمة !

طاف السؤال في ذهني مرّةً أخرى، و لم اتمكن من كظمه، استدرت نحوه و تقيأت السؤال بسرعة ..

- "لماذا؟!"

كان غارقاً مثلي في عوالم لا يدركها إله، يكلّله صمّتٌ حزين، و تراقص في عينيه السوداوين مشاعر طال نسيانها، رفع نحوي نظراته التائهة و لكأنما قد خرج لتوه من قعرهاوية عميقة ...

- "عذراً؟"

أشرتُ لرباط يده و النجمتين الخضراوين الأثمتين, كررت سؤالاً مجدداً:

"- لماذا؟"

هز رأسه علامةً على الفهم, ثم رفع نظراته للأفق البعيد ..

- "أنتِ معارضةٌ أليس كذلك؟ لم أتوقع منك غير ذلك, شخصٌ بعنفوانك, طبيعتك, بالإضافة إلى طبيعتك الثورية ...." صمتَ لثوانٍ و تابع:  
"طبعاً معارضة."

- "و أنت؟"

- أنا ....

كنا قد أصبحنا داخل الحديقة, أشار لي لأجلس على أحد مقاعدها, و  
جلس إلى جانبي محافظاً على مسافةٍ مريحة ..

- أنا سفينَةٌ تأخذها الرياح حيث تشاء, سمّيتها صدفة, سمّيتها قدراً, قد  
كُتِب لي أن أرثدي هذا الزيَّ في هذا الوقت ..

- "لم أفهم.."

- "الخدمة العسكرية"

- "هذا ليس مبرراً!" قلتُ بعصبية

- "ليست جريمةً لأبررها." أجابني بكبرياء

- "أموافقٌ أنتَ على ما يفعلون؟!"

- "ليس الموضوع بهذه البساطة ... ليس الموضوع بهذه البساطة."

كان قد ركّز عينيه على نقطة وراء سور الحديقة، لم أهتم كثيراً لمتابعتها وهاجمته قائلةً:

- "يقتلون، يسرقون، يقصفون، يغتصبون! أأعمى أنت! ألا ترى! دكّوا مدناً بحالها بحجة مسلحين، وما سلّح المسلحين إلاهم وما أدخلنا في معمعة الحرب إلا جشعهم وطمعهم وغرورهم، يبيدون قرى كاملة لينظفوها ممن لا يتبع ملّتهم! العالم كله أدرك الجنون والوحشية التي نتعرض لها منهم وما أنت إلا ذرة غبار في جدارٍ يحتمون به، أنت وقودٌ لحربٍ ضد شعبك، ضد سوريا، ضد حلب!"

تهدج صوتي وأنا أذكر اسم مدينتي الحبيبة، لم ينبس ببنت شفة، وعضواً عن أن يرد، أمسك بيدي وسحبني ناحية سور الحديقة وعيناه ما زالتا مثبتتين على النقطة ذاتها، أحسستُ بكل نقطة دمٍ في جسمي تصعد إلى وجنتي وأذني، لمستّه أحرقت كل ذرة من خلايا يدي، أفلتها بسرعة كما أمسكها بسرعة، وأشار ليريني شيئاً، كان الحاجز نفسه يبدو واضحاً من هذا المكان، يقف عليه الحارس الذي أنقذني منه، بقامته القصيرة، بلحيته الكثة، بسلاحه الغادر، لكن .. على وجهه تراءى لي شبح ابتسامته، ابتسامته حنونة! كان يمدّ يده معيداً كرةً شاردةً لأحد الأطفال، ويربّت على رأسه، فيما يبتسم الطفل بعرفانٍ وفخر، ومن ثم يجري مبتعداً، لم أدري لم استفزني المشهد، زاد احمرار وجهي لسببٍ مختلف عن السبب الذي دفع الدم لوجنتي منذ دقائق، كنت غاضبة! أشحتُ بوجهي بعناد، فتحرك في وقفته حتى واجهني وقال لي بصوت حازم هادئ:

- "الدنيا يا سهام ليست كمسلسلات الأطفال, لازلت تتابعينها أليس كذلك؟"

رفعت حاجبي باستنكار..

- "بلا كهرباء؟!"

- "تفهمين ما أقصد!" أكمل بهدوءٍ و عيناه تغوصان في عيني كأنهما لينومني مغناطيسياً .. "ليست الدنيا مطليةً بالأبيض والأسود فحسب, بل على العكس, لا يحتلّ هذان اللونان إلّا أقل من القليل, في حين تملأ المساحات الرمادية التي ترفضين الاعتراف بها كل شيء, في هذه المساحات أعيش أنا."

- "لا يهمي أين تعيش! لا يهمني لونك الرمادي, لو كنتُ أنا رجلاً ل ..."

قاطعتني بثقة

- "لكانت حيرتك أكبر من حيرتي."

حركتُ رأسي بالنفي, و أشرتُ لأطفال يجرون بسعادةٍ أمامنا

- "لكنّ دافعتُ عنهم."

- "أنا أدافع عنهم!"

- "لا! أنت تدافع عنه!" أومأت نحو بيت قائد الشرطة و الصورة

الكرهية التي تنصدر جداره, صورة المجرم الأكبر في بلدي, من يسمونه رئيساً ليرتكبوا باسمه أفظع المجازر و الأهوال, صورة بشار الأسد .

هز رأسه باستسلام ...

- "لم أتوقع منك أن تفهمي، أنت لازلت طفلة، لم تتغيري!"

نظرت له بتحدٍ سافر

- "و أنت أيضاً لم تتغير!"

اطرق رأسه، فعرفت بأنه ادرك ما كنت أعني، أحسست بسحابةٍ من الكآبة  
تغمرنني، بات الجو بيننا متوتراً ثقيلاً.

أنقذتني رناتٌ على هاتفي المحمول، رددتُ بسرعة فأتاني صوتها الملائكي

- "ماما أحضرت لي الدفتر؟"

- "نعم يا حبيبتي طبعاً."

- "لا تتأخري أرجوكِ قلقت عليك."

- "لا تقلقي يا غاليتي سأعود بعد قليل."

- "حسناً يا ماما، أحبك." و أرسلت لي قبلةً رقيقةً مثلها، عبرت الأثير

بسرعة، لتستقر في قلبي و ترسم على وجهي ابتسامةً سعيدة، أنهيت المكالمة و  
استدرت نحوه..

- "يجب أن أعود، لقد تأخرت على ابنتي."

نظراته اتجهت نحو بنصري الأيسر الحرو سألني بلهفة ..

- "تزوجتِ؟"

- "و طلقت ."

لمحت نظرة سعادةٍ في عينيه أزعجتني، تجاهلتها و سألته السؤال الروتيني،  
أو لعله لم يكن روتينياً ..

- "و أنت؟"

هزّ رأسه نفيّاً، لم أدرك سبب ذلك الشعور السخيف في قلبي، تسارعت  
نبضاتي، بادرتُ بالوقوف بسرعة ..

- "لا داعي لأن توصلني، لا بد من أنك تأخرت عليهم ."

نطقتُ الكلمة الأخيرة باستهزاء، لم يلقِ بالألّ إليه و سحب مني هاتفي قبل  
أن أعترض و ضغط بضعة أرقامٍ عليه، ثوانٍ و سمعتُ رنيناً آتياً من جيبه،  
أعاد لي الهاتف و ابتسامه عريضةً تملأ وجهه، و على عينيه نظرة عرفتها على  
الفور .

- "الحمد لله الهاتف يعمل !"

دون كلمةٍ واحدة، استدرتُ على عقبي و ابتعدتُ عنه بسرعة و أنا احس  
بنظراته تخترق ظهري، قاومت كل رغبةٍ لدي بأن ألتفتَ نحوه مودّعةً، و  
أفنعت نفسي بأن دقّات قلبي ما كانت إلّا بسبب سرعة خطواتي و لياقتي  
البدنية الضعيفة .

استيقظت صباح اليوم التالي على صوتٍ لطالما حنّيت إليه، صوت زقزقة العصافير .

لم أصدق أذني، فقفزت من سريري، رميت شالاً على رأسي و أزحت الستارة المتراقصة على نافذتي، إنه حقاً صوت العصافير تمرح بين الأشجار بحيويةٍ و نشاط، تتقاذف من غصنٍ إلى غصن، مداعبةً بصرخاتها البريئة شغاف قلبي، أغمضتُ عينيّ في محاولةٍ لإلغاء كل حواسي الأخرى، لأغرق روعي في السيمفونية العذبة، كيف عادت فجأة؟ كيف اختفت و متى؟! شيءٌ في داخلي صحّ بأنّها كانت قد اختفت منذ زمنٍ طويلٍ قبل الحرب .

أفسحتُ سحابةً عابرةً الطريق للشمس لتغمرنني، مداعبةً وجهي بأشعتها الرقيقة، نسمة هواءٍ اجتاحت الغرفة مزيجة شالي، عابثةً بخصلات شعري الطويل بمجون، ابتعدتُ عن النافذة عاتبةً على النسمة إفسادها متعتي، لكنني عذرتها، لا بد أنّها قد هربت من أبخرة البارود و قسوة الحرائق و الدخان، استلقيت مجدداً على سريري، اليوم عطلة، بإمكانني الاسترخاء قليلاً؛ أخذت أراقب رقصة ستائري مع النسيم اللعوب في حين قرر خيال سمير أن يكفّ عن دور المراقب لأفكاري، فبدأ يتغلغل رويداً رويداً في تلافيف خيالي، كتفاه العريضان، نظراته الشاردة، البسمة على وجهه و هو يسلمني هاتفي، عيناه السوداوان ... عيناه السوداوان .. عيناه السوداوان ! احتلنا خلال دقائق كل مساحات خيالي، نعم لا زالت الذكريات القديمة قابضةً في الزاوية هناك، كصندوقٍ أسود يغريك بأن تفتحه مفسحاً الطريق لكل الآلام و الشجون، لكن ذكرى البارحة أبت إلا أن ترسم على شفتي بسمةً رقيقة،

أغمضت عيني و غرقت في بحرٍ أسود غامض، سبق لي أن سبرتُ أغواره و  
أدمنت الاحساس اللذيذ بالدوبان فيه .

خطواتها الخفيفة العارية و هي تعدو نحوي صققت على أرض غرقتي  
كأجنحة ملاكٍ رقيق، عانقتني لتمنحني قبلة الصباح، حضنتها و سحبتها معي  
للسرير، أراحت رأسها الصغير على ذراعي و تناثر شعرها البنيّ على أعطيتي  
البيضاء في سرياليةٍ مبدعة، أما عيناها فقد دفعتا بعينيه نحو الظل، فعندما  
نُشِعَ أنوار أميرتي تخفُّتُ كل الأضواء الأخرى، مدّت ذراعها الصغيرة لتحيط  
برقبتي، مسحّت بكفها الصغير على شعري، " أحبكِ ماما " تمتمتُ بدلالٍ ثم  
قفزت عن السرير و طارت نحو ألعابها، نهضتُ من تكاسلي و قمت لأحضّرَ لها  
طعام الفطور، و على الفطور طرحتُ الفكرة ..

- " ما رأيكِ بزيارةٍ للحديقة ؟ "

كنتُ أشعر داخلياً بالذنب لزيارة الحديقة البارحة بدونها، و كان في قلبي  
فسحةٌ من الحسد و الغيرة من ضحكات الاطفال و مرحهم فيما كانت طفلي  
قابعةً في المنزل مهدوء، قررتُ أن أعوضها بزيارةٍ ممتعةٍ تكسر بها رتابة الأيام  
المتكررة و ألم الانتظار الطويل لنهاية حربٍ لا تنتهي .

ربما ... ربما في ذاتي الدّفينّة، كانت لديّ دوافعٌ أخرى، ارتسمت على شفّتي  
ابتسامةٌ خبيثة، استقيتها من ظلِّ بعينين سوداوين كان يختبئ في زاوية  
أفكاري.

على الطريق كانت تقفز بحيويةٍ و نشاط، و لكأنّها تنتقم من شهرٍ من  
الهدوء و الحكمة السابقة لسنّها، و كأنما لتفرغ شحنةً مهولةً من الطفولة

التي طال حبسها بداخلها، كانت تلاحق الفراشات و هي تصرخ بحماسة، تستعجل خطواتي الهادئة تارةً و تحجل تارةً أخرى، حتى أنّها أخذت تقفز كراقصة باليه على رجلٍ واحدةٍ في تعبيرٍ راقصٍ عن شوقها للعب الحرّ في الهواء الطلق، كانت السعادة تشرق من كل ملامحها الطفولية لتزيد اليوم إشراقاً وبهجة .

وصلنا للحديقة ركضتُ نحو الأرجوحة، لعبتها المفضلة فأسعفها ووصلنا الباكر و عدم ازدحام المكان بالوصول إلى واحدةٍ فارغة على الفور، جلستُ فيها و نادتني لتريني أنّها قد تعلمت كيف تؤرجح نفسها دونما مساعدة، أما أنا فقد اتجهت إلى مقعد البارحة نفسه و جلست عليه مهدوء، أعلم أن ما أقوم به هو الجنون بعينه، لكنني اليوم في أجازة، و قد قررت منح عقلي هو الآخر أجازةً و لوليومٍ واحد.

جالت عيناي على طول الحاجز فلم أراه، لماذا يختفي في كل مرة أبحث عنه فيما؟! فكرت بغضبٍ طفولي، فكرت بأن أتصل به، أخرجت الهاتف من جيبي، رقمه هو آخر رقمٍ تمّ الاتصال به، لكن عقلي تشبّث بي ورفض ان يتركي لنزوة جنوني، زفرتُ متأففةً و أنا أعيد الهاتف لحقيبتي، و غرقت في ذكرياتٍ حرصت على أن أختارها مشرقةً مبهجةً لتناسب مع حالتي المزاجية، و مع جوّ اليوم الجميل .

– "لقد لمحتك تكلم سلوى البارحة . " قلتُ و أنا أبرم شفتي السفلى بطفولةٍ مطلقة " ماذا تريد منها؟"

- "كانت تسأل عن موعد المحاضرة. " أجابني و المتعة تطلُّ من عينيه  
السوداوين.

- "ولم تجد غيرك لتسأله؟! " وضعت يدي على خصري في تحدي وأنا  
أسأله باتهام.

علت ضحكاته ثم اقترب مني وقرصني من خدي ..

- "إكبري قليلاً!"

أبعدت يده وقلت في دلالٍ ظاهر:

- "لا! كنت تلتهمها بعينيك, تراها أعجبتك؟! "

نظر إليّ مباشرةً وأغرقتني في بحر عينيه السوداوين

- "من ذا الذي ينظر للحلي ومعها الذهب؟"

قرّب رأسه من رأسي في محاولةٍ لاقتناص شفتي, دفعت صدره ببدي و  
عدوت مبتعدة .

تألقت الابتسامة على وجهي وأنا أذكر نظرات زملائنا و هي تلاحقنا بحسد,  
كانوا يسموننا الثنائي المثالي ! كنا نضحك كثيراً, نمرح كثيراً و يحبّ كلُّ منّا  
الأخر .. أكثر من الكثير!

- "أحبك لدرجةٍ مبالغٍ فيها! أحبك أكثر مما ينبغي يا سمير!"

- "لا حدود للحب يا حبيبتي, امنحيني حبك كاملاً, إغرقني معي في بحر  
جنوني, فحبك هو ما يبقيني حياً في هذه الدنيا."

بسمّة حزينّة ارتسمت على وجهي ..

- "كلّ الحكايات الجميلة كانت نهاياتها حزينة، روميو و جوليت ، عادة الكاميليا ، عنتر بن شداد و عبلة ، قيس و ليلى .. يُشَيِّهوننا بهم، فماذا أفعل يوماً إن خسرتك؟! لن اتمكن من العيش بعدك يوماً واحداً!"

- "تحسبيني مجنوناً لأبتعد عنك؟ أنا .. أتنفس .. اسمك!"

قمتُ من على مقعدي، لوحتُ لأمل، فردت عليّ ضاحكةً و هي تطير في الهواء على أرجوحتها، كانت سعيدةً جداً، ابتسمتُ بوهن، اقتربتُ من السور، باحثةً من جديد ... يا ترى أين هو؟ لماذا يرحل دوماً في الأوقات الخاطئة !

بدأت أرساد قلبي تعلن عن اقتراب غيومٍ ماطرة، زلزل سماء ذكرياتي هزيم الرعد

- "أنا آسف!"

ومضة برقي سريعة ألقى بنورها على المشهد، نظرةً حزينةً، كلامٌ كثيرٌ غير مفهوم ... ارتفع هزيم الرعد مجدداً ..

- "أنا آسف!"

بدأ المطر بالتساقط على أرض أحلامي، انطفأت قناديل ضحكاتي و نعق غرابٌ ناعياً حباً يحتضر .

أوقدتُ شمعةً من ألمٍ لأراقب المشهد الحزين بهدوء ...

- " لن أستطيع، أنا آسف" حوّل نظرتي للفسقية الحجرية، يتراقص الماء فيها كدموع ذاتي الكسيرة، كان الألم يفيض من عينيه ليزيدني ألماً على ألمي .

- "لماذا؟ ما الذي حدث؟!"

- "مهما شرحْتُ لكِ لن تفهمي!"

- "قَصَّرْتُ في شيء؟ ضايقتك؟ أهي غيرتي المجنونة؟"

- "لا يا حبيبيتي! لا!..." "أمسكْ بيدي بحب كأنما ليدي بكلمات حبه

للمرة الأولى، لكن وقع الكلمات كان مختلفاً

- "أنتِ أجمل و أرق ملاكٍ في الوجود، أنتِ أروع إنسانٍ عرفته في حياتي،

لكن!"

- "لكن ماذا! بالله عليك! أخبرني ماذا؟ ماذا أفعل؟" غالبتُ دموعي،

خنقتني الغصّة فخرج صوتي جريحاً...

- "لا تتركني هكذا!"

كنتُ على استعدادٍ لأحارب الدنيا بأسرها، كنت على استعدادٍ لأي شيء

لأبقى معه، فقط لو يقول لي!

فاضت دمعاً من عاصفة ذكرياتي فتدحرجت على وجنتي، مسحتها بسرعة،

نظرت لأمل، حمداً لله لم تكن تنظر لي، كانت مشغولةً بالتعرف على صديقةٍ

جديدة.

ومض برق الذكريات مجدداً

"- لا ترحل .. أرجوك!"

صوت ألحان القانون الهادئة و أشعة الشمس المنحدرة من السقف  
المفتوح العالي لبيتٍ حليٍّ قديم، الأعمدة الخشبية المطعمة بالصدف و  
النقوش البارزة على الحجر الأبيض، شجرة البرتقال الوارفة، كلها شحبت و  
فقدت رونقها وهو ينكس رأسه بانهازام ..

- "أنا أسف !".

سدّد حساب مشروبانا وسط ذهولي، أوما لي برأسه، ورحل ! ..

انتهى الزمن، انتهت الحياة بأسرها ! لقد رحل !

لم أدري كم من الوقت ظللت ساكنةً في ذهول، لكنني حين أفقتُ وجدتُ  
وجهاً مبللاً بالدموع، ومقهى كاملاً يرمقني بنظراتٍ من الشفقة القاتلة، وددتُ  
لو أصفع كلاً منهم كفاً، لكنني اكتفيت بجلد ذاتي بسياطٍ من كراهية، و  
الهروب بسرعة .

أمسكت بحقيبيتي ... عوضاً عن يده، و أخذت أجري، نعم أخذت أجري و  
أجري و أجري بين الأزقة القديمة، لكأن الطرقات و الأزقة تلك كانت مهينةً  
للهرب من عدوٍ خطير، أما أنا فكان عدوي هو نفسي، كنت أهرب من نفسي و  
حاضري و من كل شيء، في الواقع ... لم أكن ادري ممّ كنت أهرب، كنت أهرب  
فحسب،

جريت حتى أنهكت قواي، خررتُ على ركبتي راکعةً في زقاقٍ جانبي، وضعت  
يدي على فمي لأكنتم بصعوبةٍ نشيجاً كان يهز جسمي بعنف؛ لكم لعنتُ قلبي و  
حيي، لكم لعنت طفولتي و براءتي، لكنني لعنته أكثر ! مرت دقائق، ربما

ساعات, لملتُ بعدها شتات نفسي, أخرجتُ مندبلاً مسحت به آثار جريمته  
من على وجهي وخرجت من الزقاق جسداً تم وأد روحه بنجاح .

لم أفهم يوماً لِمَ رحل, لا يهمني لِمَ رحل ! لكن رحيله دفعني لكره ذاتي  
سنيئاً طوال, كرهٌ استغلّه الكثيرون ضدي أسوأ استغلال, و لم يوقظ ذاتي  
الكسيرة إلا أولى شرارات الربيع العربي, فكرة الثورة لم تخص الأنظمة  
الديكتاتورية فحسب, الثورة كانت ثورةً على الظلم في أيّ مكان, فثرتُ على  
ظلمي لنفسي, نبشتُ قبر روعي وعانقتها وقررتُ أن أعود أنا .. أنا مهما حدث,  
من كان في حياتي حينها لم يكن أهلاً للموقف, لم يكن يوماً أهلاً للموقف,  
فرحّب برحيلي حاملاً معي طفلي وذاتي, لأبني دولة سهام من جديد ...

ألقيت نظرةً على الحاجز ... طبعاً هو ليس هنا ! .

- "أمل حبيبتي, لقد حان وقت العودة للمنزل."

تبعني على الرغم من تأفها, صالحتها بكيسٍ كبيرٍ من الحلوى الملونة  
فعادت الابتسامة لوجهها الجميل: لا! لن تُهزم روعي مجدداً و معي أمل!  
زَرَعْتُ بِسْمَتِهَا البسمة في روعي, انقشعت سحب الدموع و أشرقت شمس  
أميرتي من جديد, ابتسمت و حضنت يدها الصغيرة طوال طريق عودتنا إلى  
المنزل .

obeikandi.com

## الفصل الثاني

obeikandi.com

هديةً جديدةً أُضيفت إلى قائمة معاناتنا اليومية، تراها في كبد السماء  
متسكعةً ببرودٍ قاتل، أزيزها يغزو مسمعيك باستفزازٍ كذبابيةٍ عملاقة، شيءٌ ما  
في داخلك يغريك بأن تحاول رفع يدك للسماء في محاولةٍ يائسةٍ لسحقها بين  
إصبعيك، فتعود لك أصابعك خاويةً فيما تزداد هي قريباً و يعلو أزيزها، فقط  
لتعلمك، كم أنت ضئيلٌ في هذه الحياة ! .

مرّ يومان على لقائي به، كنت قد تخلّيت نهائياً عن فكرة الاتصال به،  
قررت ألا أعطيه فرصةً جديدةً لينبذني مرةً أخرى، لكنني على الرغم من  
إصراري على قراري إلا أنني كنت أستفيق من شرودي لأجد نفسي أحملق في  
هاتفي بحقدٍ و غضب، كنت أسمع صوت قلبي يعنّفه و يلومه على صمته  
المطلق، راجياً إياه أن يرن، معلناً بأن لقائنا كان أكثر من مجرد صُدفةٍ عابرة،  
على كل حالٍ لم تكن الآلة المسكينة لتستمع إلى مناجاة قلبي، كانت مستمرةً  
بالركون هادئةً إلى منضدتي مغلفةً بصمتها المطلق .

ربما التقطتُ أمل أيضاً عدوى السكون مني و من هاتفي، ربما يعود ذلك  
لقرب موعد الامتحانات المدرسية و انهماكها المبالغ به في دروسها، حتى قُبلاتها  
كانت تمنحها لي بسرعةٍ و صمت، لتعود إلى أوراقتها و كراسياتها .

أما أنا فكانت أفكاري دائماً تدور حوله، كانت أفكاراً مرّة الطعم، تقتل في  
نفسي أيّ لذةٍ للحياة، إن كان لا زال فيها لذة !

كنت مغرقةً في كآبتي، و على الهامش كنت أستمع لأطراف نقاشٍ بدأ يأخذ  
شكل الجدل بين أبي و صغيرتي حول طريقة كتابة حرف الطاء، و كما دوماً في

لحظة واحدة تموت النزاعات الصغيرة و تختفي أصوات الاحتجاج، ترقص أقدامها الصغيرة في أرجاء المنزل و صدى ضحكاتهما يلحق بها من غرفة لغرفة، إنها لحظة عودة التيار الكهربائي، كانت في كل مرة تُشعل كل أنوار المنزل، كأنما لتعلن للدنيا بأسرها أن " لدينا تيار كهربائي "

كانت فرصة رائعة لي لأهرب من أفكاري القاتمة، نشاطي الفيس بوكي كان ليكون الملاذ الأخير من الحمم البركانية المحتدمة تحت رماد هدوئي المصطنع .

بدأت موجة إبحارٍ جديدةٍ في عالمي الافتراضي الآمن .

البيضا ... القصير .. حزب " اللات " .. رفع حظر الأسلحة .. الحشد في حلب و حماة \ طبعاً فهما معقل الطائفة السنية في سوريا \ حرب أهلية .. حرب طائفية .. المزيد من الشهداء ..

أخذتُ أتقل بين الأخبار الجديدة القديمة، متصفحاً صوراً اعتادتها عيني، طفلٌ يبكي أباه، أمٌ تحاول الاستماع لنبض طفلٍ قد رحل، جثثٌ كثيرةٌ أغلّتها لأطفال، دماءٌ.. دماءٌ.. دماءٌ في كل مكان، لمحتُ صورةً لجدار بيتٍ دكته قذيفةٌ غادرة، و على الجدار رسم أحدهم وردةً و كتب إلى جانبها: "لن يموت الأمل" أعجبتني الصورة، نشرتها على صفحتي الشخصية، لكن جرعة الأمل الضعيفة فما سرعان ما انتقلت من طور الاحتضار إلى العدم، في مواجهة إحساسي العام بالقتامة و التلبّد .

كنتُ مجرد ذرة رمل في ساعة رملية ضخمة، أراقب من وراء الزجاج نيران الجشع تتطاير ألسنتها بجنونٍ متصاعد، لتلتهم كل شيء، فيما أقترب يوماً بعد يوم من حافة الانهيار، لا أملك إلا أن أنتظر بيأسٍ قدوم من يأتي ليحطّم

زجاج الساعة و يحررني أنا و كل ذرات الرمل الأخرى, في وطنٍ بات فيه الموت  
موسوماً على جباه الجميع .

إنتظار الموت .. أصعب من الموت نفسه .

صندوق محادثةٍ انفتح تلقائياً، كان ذاك خالي ياسر .

خالي ياسر كان مهندساً لامعاً، تخرّج من الأوائل على دفعته، فرضت عليه  
القوانين الأُسدية ثلاث سنواتٍ من الخدمة الإلزامية، قطعاً! فعبقريّة كهذه  
خطرةٌ إن لم تكن تحت سيطرتهم، فكان أن تقرر كبنته، و تم تعيينه في إدارة  
مشفى الأمراض العقلية .

و ككل شابٍ في بلدي قرر أن يدفن أحلامه و طموحاته و يقبل بما "قسمه  
الله له" : بعد مدة، بدأت المشاكل تطوف على السطح.. فقد رفض أن يصبح  
ترساً في آلة فسادٍ صنعت لدفن كل من لا مكان له في مخططاتهم، لم يحتمل  
رؤية عباقرّة يوصمون بالجنون، و عقلاء يقضون عمرهم حبيسي المصحّ لمجرد  
رفضهم لتنفيذ رغباتٍ جشعة، بدأ بالكلام، ثم توقف فجأة، بعد زيارةٍ من  
شخصيةٍ ضخمةٍ في عالم الأعمال لأبي، عرفت لاحقاً بأن الرجل جاء ليبلغ أبي  
جملةً واحدة، " ابن حموك لن يكلفني أكثر من رصاصةٍ واحدة ."

خبأ خالي صمته في حقيبةٍ كبيرة، حملها و سافر إلى إحدى دول الخليج  
مندوباً للمبيعات، و تكفلت أوراق البنكنوت بإنهاء الخدمة الإلزامية في ستة  
شهور .

بعد أعوامٍ عاد خالي بحقيبةٍ أكبر، محملاً بالكثير من الهدايا و القصص ..

- "ألا تتعرضون للتمييز العنصري هناك ؟"

رد بضحكةٍ ساخرةٍ كبيرة، لم أفهمها يوماً، اليوم فهمتها بعد سنين طوال، وأنا أرى الأحزاب العقائدية تحشد لحربٍ ضروسٍ في بلدي، متنافسة في دعم نظام مجرمٍ يحارب شعباً كاملاً... نعم اليوم فهمت ضحكته، و التوت شفتاي في ضحكةٍ مشابهةٍ فيما كنت أردّ عليه التحيات المعتادة و الدعوات القلبية بـ "انفراج الأزمة"

- "سهام .."

- "؟؟"

- "لماذا أنتم صابرون على هذا الوضع؟"

- "كما يصبر غيرنا، ليس ذلك بالأمر العسير، الحمدلله ظرفنا أفضل من غيرنا بكثير."

- "لكن لديكم خيارٌ آخر"

كنت أعرف ما يرمي إليه، فقد تكررت محاولاته في إقناعنا بالسفر هرباً من قدرٍ مجهول، أو ضيقةٍ أشد، أجبته الإجابة المعهودة "

- "السفر مرفوضٌ عندي نهائياً يا خال، تعلم ذلك جيداً."

- "لماذا يا ابنتي؟ تعرفين جيداً بأن بيتي مفتوحٌ لكم، و الدول كلها تقدم كافة أنواع المعونات و التسهيلات و...."

- "لأصبح لاجئة؟! "

- "مؤقتاً حتى تنتهي الحرب."
- "ما أظن ما علل لاجئوا فلسطين أنفسهم به مختلفٌ كثيراً عما ذكرت"
- "سوريا ليست فلسطين."
- "نعم أعلم ذلك، لكنني لن أترك بلدي."
- "هذا جنون! ماذا ستسفيد بلدك منك و من مكوثك فيها؟! مهما كان ما تفعليته هناك تستطيعين القيام به هنا."
- لا يا خال، هذه بلدي ... بلدي أنا وليست بلدهم، لن أتركها لهم."
- "يا ابنتي! .."
- همّ بكتابة شيءٍ ما، أعلمني بذلك القلم الافتراضيّ يرقص على الشاشة معلناً انشغال الطرف الآخر في المحادثة بالكتابة، لكنه تراجع عما كتب من كلمات، مرت بضعة دقائق صامتة، أكد لي بعدها مجدداً:
- "خذوا حذرکم، و إن احسست في أيّ وقت ..."
- أكملتُ الجملة عنه موفرةً على نفسي المزيد من الضغط ..
- "إن أحسستُ بخطرٍ سأتي يا خال، و لو قررنا السفر قطعاً سنأتي إليك، نعرف أن لنا ظهراً نعتمد عليه، كيف حال جدتي وزوجك والأطفال؟ ..."

تابعتُ بعدها بحديثٍ روتينيٍّ عن الصحة و المدارس و الأطفال.. انتهى  
بسرعةٍ و عدت للتصفح من جديد، و كلمةٌ ضخمةٌ أكبر من محيط الألم تطرق  
جدران جمجمتي برتابةٍ موجعة " لاجئٌ سوري "

- "أخي المسلم، ساعد أخواتك في سوريا، فهن يتعرضن لكافة أنواع  
الانتهاك و الإذلال، ساعدهنّ و احمهنّ، أنا شخصياً سأزوج اثنتين."

كان مقطوعاً من الفيديو بثّه أحد الأصدقاء معلّقاً بالكثير من إشارات  
التعجب ...

لم أصدّق عيني و أنا أرى الشيخ ذو اللحية البيضاء يتشدد بكلماته تلك  
بوقاحةٍ سافرةٍ على شاشة قناة " إسلامية " .

يا له من زمن، يجاهد فيه أنصاف الرجال بصلبهم !

شعرت برغبةٍ في البكاء، أنهيت تجوالي الكئيب بسرعة و جلست لدقائق  
محملةً في شاشة حاسوبي الفارغة ... موسيقى؟ ربما تحسن الموسيقى  
مزاجي، فأنا لم أسمع سوى الأغاني الوطنية منذ زمنٍ طويلٍ بحق، قلبت في  
ملفات جهازي حتى وصلت لبعض الأغاني " المرحة " .

للموسيقى أثرٌ رهيبٌ على النفس البشرية، أحسستُ بالألحان تغسل روحي  
و عقلي من أيّ أفكارٍ أو احساس، و اندمجتُ في الألحان الصاخبة، شيئاً  
فشيئاً بدأ كتفاي يتراقصان مع اللحن ... "لم لا؟! " أسررت لنفسي " ما زلت  
حيةً أليس كذلك ؟ "

قمت من جلوسي الطويل و بدأت بالتمايل بفنحٍ ودلالٍ لا تجيدهما إلا  
الأنثى الشرقية، بدأت الضحكة تعلو وجهي، أحسست بروحي تفتح كوردةٍ  
أنعشتها أشعة شمس يومٍ ربيعيّ ...

" و إنت إيديك في إيديا قولي هسيها ليه " لمست كلمات الأغنية جرحاً  
غائراً و عاد السؤال القديم يتراقص بداخلي "لماذا تركني؟ كان يحبني و  
يعشقني، كنت له الدنيا ... فلماذا رحل عني؟" شيئاً فشيئاً ثار طوفان  
العويل في داخلي، تغيرت حركاتي لتتناسب مع فيضان جراحي، و بدأت أرمحُ في  
كل مكانٍ في الغرفة كطيرٍ ذبيح، عادت الذكريات للتكدس في كوماتٍ من  
الصور فوق مرآة روجي، أخذتُ أدورُ في كل مكانٍ مصطدماً بالأشياء من حولي،  
كأسٌ بلوريةٌ على طاولتي سقطت و تهشمت، و لكأنما بهشمتها أرسلت رسالةً  
لعقلي بأن يغيب، فانطلق جنوني من عقاله و أخذتُ أرمي كل ما تصل يدي له  
في نوبة جنونٍ مطلق، و صوتٌ بداخلي يئنُّ بوجع: "لماذا؟! .. لماذا؟! لماذا؟! .."  
لماذا؟! ..

انهزتُ على سريري، دفنت رأسي في وسادتي، اختلطت صرخاتي بدموعي  
"لماذا؟! .. لماذا؟! .." و لم أتوقف حتى خارت قواي تماماً.

كدتُ أسلم نفسي لسباتٍ عميق، على الرغم من الصوت المرتفع للأغاني  
الصاخبة، و الذي نجح بإخفاء نوبة غضبي عن أبي و صغيرتي، لكن رنين  
الهاتف انتشلني من على حافة كابوسٍ كربه و أنا لا أزال على مشارفه، لم يكن  
هاتفي المحمول طبعاً، فهو مستمرٌ في صمتٍ اعتنقه مذ لمستته يد سمير؛ كان  
الهاتف الأرضي، أغلقتُ حاسوبي بسرعة، و رفعت سماعة الهاتف محاولةً  
إخفاء أثار البكاء عن صوتي ...

- "سهام أنتِ بخير؟"

كانت تلك صديقةً قديمةً للأسرة، صديقةً منذ طفولتي، في الواقع منذ طفولتها هي وجدتي ..

- "نعم يا خالة أنا على خير حالٍ والحمدلله، وأنتِ ؟"

- "حمداً لله، وماذا عن رضوى ؟"

استغربتُ سؤالها، فالخالة رضوى شقيقة جدتي، كانت قد رفضت كل محاولةٍ لنا لإقناعها أو للضغط عليها بكافة الوسائل و الطرق لتقبل الانتقال للسكن معنا، خوفاً عليها من الوحدة وظروف الحرب الصعبة، إلا أنها أبت و أثرت هدوء منزلها وصحبة جيرانها القدامى.

- "خالتي رضوى في منزلها" أحببتها والدهشة تملأ صوتي

- "حاولتُ أن أتصل بها دون جدوى، أردتُ ان أطمئن عليها بعد الانفجار."

طبعاً الانفجارات أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية، لكن .. أن يرغب أحدهم بالاطمئنان عنك بعد انفجار، فهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً...

- "أيُّ انفجار؟" أحسستُ بموجة صقيعٍ تسري في جسدي كله، ثم سألتها. " أين ؟"

- "ليس بعيداً عن مساكن الخالدية يا بنيتي، لذا اتصلت لأطمئن."

بدأ صدري بالانقباض، انفجارٌ قريب، يعني على أفضل تقديرٍ شظايا زجاج النوافذ !

- "قلت لي اتصلت بها ؟"

- "نعم يا حبيبتي و لم ترد علي." ترددٌ خفيفٌ بدى في صوتها، فقد أدركت للتو أنها أقلقني بشدة .

- "حسناً سأطمئن عليها و أعاود الاتصال بها، لا تقلقي لا بد أنها بخير، ربما تكون نائمة." حاولتُ أن أخفي قلقي عنها، و طمأنتها فيما كانت نيران القلق تمهش في صدري ..

- "بارك الله فيك يا ابنتي، السلام عليكم ."

- "و عليكم السلام ورحمة الله و بركاته ."

صورٌ بشعةٌ بدأت تطوف في خيالي و أنا أقفل السماعة، و أعاود رفعها بسرعةٍ لأطلب الرقم الذي أحفظه عن ظهر قلب، خالتي رضوى، التي كانت تحشي فمي و جيوبى بكل أنواع الحلوى كلما رأيتهما، كنت زيارتي لها أشبه بزيارة مغارة علي بابا، كنت أجولُ في غرفها مستكشفةً في رحلةٍ خياليةٍ للبحث عن الكنز، إذ كان يحلو لها أن تخبني في كل زاويةٍ شيئاً من السكاكر و الشوكولاتة، كانت تهوى إمتاع الأطفال، الأطفال الذين حرماها الله نعمةً إنجابهم .

انقطع صوت الرنين دون أن يردَّ أحد، عاودتُ الاتصال ثانيةً...

لقد قصرتُ مؤخراً في حق خالتي رضوى، كانت تأتي إلينا حاملةً سنيها التسعين، و الكثير من الحلوى لأمل، فيما تخصصني بساعاتٍ من العتب الحزين

"سأمت يوماً دون أن يدري بي أحد، لأنك لا تسألين عني" كنت في كل مرة أقدم لها طبقاً مشكلاً من الاعتذارات: "العمل"، "ظروف الحرب"، "التعب"، "أمل ودراستها".. كانت في كل مرة تتناول منه ما يكفي لإرضاء خاطرها الكسير، وتعود المرة التالية حاملةً في جعبتها عتاباً أكبر وقلقاً أكبر، من أن تموت وحيدة .... خالتي رضوى !

للمرة الثانية انقطع صوت الرنين دونما رد ..

كل أقربائنا إما رحلوا أو هاجروا أو لجأوا إلى بلادٍ أخرى هرباً من ويلات الحرب، ولم يتبق لي إلا أبي، ابنتي، وخالتي رضوى؛ لا بد من أن أطمئنّ عليها، ارتديتُ ثيابي بسرعة، ذهبت لأبي وشرحت له الموقف، وافق على ماضي بعد أن حاول الاتصال بها مجدداً دونما جدوى ..

- "لا تتأخري يا ابنتي، الطرقات ليست آمنةً حين يحلّ الظلام و  
الحواجز...."

- "أعلم يا أبي، لن أطيل الغياب لا تقلق ."

وعدته بأن أسرع خطاي، الطريق كان طويلاً و ساعة المغرب كانت قد اقتربت، لكنني وعدته بأن أعود باكراً و أنا أمنحه قبلةً على جبينه الوضاء، منحتُ صغيرتي الحلوة قبلةً على وجنتها، و وعداً بإحضار الكثير من حلوى الخالة رضوى، و خرجتُ من البيت مسرعةً و في خيالي صورةً مليحةً لامرأةٍ عجوزٍ طيبةٍ ممددةً على أرض منزلها، مضرجةً بالدم .

ربما لأننا مع انقطاع التيار الكهربائي والمياه والاتصالات المستمر كنا قد فقدنا قدرتنا على الاعتماد على وسائل الحياة العصرية، مما أحيى بداخلنا غريزة إنسان الغاب، قد يكون ذلك هو السبب الذي دفعني للنظر إلى السماء في محاولةٍ لاستقراء الوقت بدلاً من النظر في ساعتِي، أو ربما لأنني في هذه المرة لا أستعجل عودتي إلى المنزل خوفاً من والدٍ يقرعني ببعض الكلمات القاسية لتأخري لبضعة دقائق مرت بعد ساعةٍ متفق عليها، بل كنت في هذه المرة أخشى الظلام، الظلام الدامس لمدينةٍ نسيت مجون الليل و أنواره البراقة في سهراتها الشرقية الراقصة حتى الصباح .

حلب العروس المدللة، بمحلاتها و دكاكينها التي كانت لا تفتح بأي حال إلا بعد صلاة الظهر، و نواديها التي كانت لا تغلو من روادها حتى ساعات الصباح الأولى، أصبحت الآن " منطفئةً عسكرية" كما سماها لي ذاك الرجل منذ بضعة أيام، و في المنطقة العسكرية، الليل يعني حراسةً مشددة، تلك الحراسة العسكرية كانت ما أخشاه...

المهم أنني رفعت عينيّ للسماء، فلم أر السماء! رأيت عوضاً عنها سحباً كثيفة من الدخان، و ما تمكن من البروز من ورائها من ثوب السماء المخملي، كان مضرجاً بانعكاسات ألوان الحرائق عليه، أما الشمس فما كانت تتربع على عرشها مرتديةً ثوباً برتقالياً بهيئاً، بل كانت تتلصص من خلف الوشاح الخانق مضرجةً بلونٍ أحول أن أهرب منه في صور أطفالٍ شهداء ... لون الدم ...

أشحتُ بنظري عن السماء، و أسرعْتُ بخطواتي محاولةً الوصول بسرعة، قاطعةً المسافة بيبي و بين الاطمئنان على خالتي الطيبة، كنت أحاول أن

أشغل نفسي بأيّ شيءٍ لأبعد اللون الأحمر عن خيالي، فاتخذتُ من مراقبة  
المآزة تسليةً لي، باحثةً عن قصةٍ في كل وجه ..

هذان عاشقان تشابكت أيديهما، يستعينان بجهما على مجابهة ألم الحرب  
و خوفه، في محاولةٍ لرسم مستقبلٍ عذب، يكونان فيه معاً أكثر قوة ..

و هذه أسرةٌ تسعى للسفر من البلد، لا .. ليست بأسرةٍ نازحة، نظرةً لوجه  
الأم تؤكد لك ذلك، لم يكن في عينيها تلك النظرة لأُمٍ كادت تفقد أطفالها، أو  
على أفضل تقديرٍ من يعيلها وإياهم، ولم يكن على عينيها نظرة من تهدم منزل  
جيرانهم و هرب بروحه تاركاً وراءه تاريخاً يعلم أنه لن يراه مجدداً، حتى  
حقيبتهم لم تكن كبيرةً كحقيبة أسرةٍ تحاول أن تحتوي ذكريات عمرٍ بأكمله،  
كانت حقيبةً صغيرةً تناسب مع جشع شركات الطيران، والمستقبل المجهول  
الذي يسعون إليه ..

أما هذا فهو أبٌ و لا بد، يحملُ خبزاً، الكثير من الخبز و على وجهه ابتسامةٌ  
سعيدة، تنبئ بحلمٍ بصيحاتٍ فرحةٍ متقافزةٍ من أطفالٍ يستقبلونه منتشليين  
ما بين يديه بسرعةٍ و نهم، و بقبلةٍ فخورةٍ على وجنته من زوجةٍ طالما صبرت  
عليه في ظروف الحرب القاسية ..

غرقتُ في بحرٍ كاملٍ من التخيلات أسافر من وجهٍ إلى آخر، و من قصةٍ إلى  
أخرى، أما الشمس فكانت تسابقني في خطواتها مسرعةً في انحدارها، محاولةً  
الهرب من سماء مدينةٍ نُقش الألم على أزقتها و شوارعها بلغة الأسلحة و  
المدافع، مدينةً استبدلت هديل الحمامم بأنات الألم و صرخات الخسران،  
لكم هُنتِ يا بلدي، حتى على الشمس !

بدأتُ الأَاحظُ بأن كل من يَمزِي يتجه إلى الناحية المعاكسة مسيراً، فبدوتُ كمن يسير عكسياً في طريقٍ باتجاهٍ واحد، كان المارة يلتفتون لي، كلُّ منهم يلقي لي نظرةً مختلفةً من الاستغراب أو الاستهجان أو الشفقة، نعم كنت أعلم سبب تلك النظرات لكن .. كان علي أن اطمئن على خالتي رضوى !

بدأتُ أقترَب، شارعان بعد و أصل إليها، هربتُ من نظرات المارة إلى العربات على جانبي الطريق، فلاحظتُ أن كل عربية منهم كانت موسومةً بثقب رصاصية واحدةٍ على الأقل، ثقبٌ على الزجاج الأمامي لقناصيٍ غادرٍ مهشمٍ الزجاج و يرسم خطوطاً عنكبوتيةً على اللوح بأكمله، أو مجموعةً من الثقوبٍ لمدفعٍ رشاشٍ على أحد الأبواب، لا يسعك إلا أن تفكر بعد أن تراها: "هل نجي ؟ أم أن تلك الرصاصات لم تخترق الهيكل المعدني للعربة فحسب؟"، لكم أكره الأسلحة، لكم أكره الرصاص !

وصلتُ أخيراً إلى بيت خالتي، و لكم ارتاح قلبي لرؤية زجاج نوافذها سليماً، فعلى الرغم من انهيار و تصدع و تهشم أغلب زجاج بيوت الحي إلا أن زجاج نوافذها القديم ظل صامداً، تنفستُ الصعداء ثم هممت بتسلق السلم بسرعةٍ حتى وصلت إلى بائها الخشبي المزركش بنقوشٍ جذابة، لا كهرباء، لا جرس، قرعت الباب بقبضتي، دقائق و فتحت لي كوةً في بائها، و ما أن رأيتي حتى انفرجت أساريها، و أساري، لا دم على وجهها المتغصن الحبيب، خالتي رضوى بخير .

كان شعرها الأبيض الأجعد متناثراً في كل مكان، فيما ارتدت ثوباً منزلياً أصفرأ، لا بدّ من أنّها كانت تستعد للنوم، قبّلتها من وجنتها رافضةً كل محاولاتٍ لإدخالها إلى منزلها وتقديم " حق الضيافة "، أخبرتها بأني على عجلةٍ

من أمري فيجب أن أعود لمنزلي قبل أن يحلّ الظلام، فهزّرت رأسها بقلق، لكن مع القلق رأيت في عينها لمعة عرفانٍ سعيدة، قررت أن أستغل الفرصة ..

- "قلتُ لكِ يا خالتي .." قرصت وجنتها بحبٍّ كمن يدلّل طفلةً صغيرةً "نحن دوماً معكِ و حولك، لا تخشي شيئاً!"

ابتسمتُ بسعادةٍ و دَعَتُ لي كثيراً، ودَعَمَتها و نزلتُ درجات السلم بسرعة و هي تلوّح لي من أعلى، نعم، رسمت نفسي أمامها بصورة البطلة الخارقة، أجتاز أهوال الحرب و الدمار لأنقذ خالتي العزيزة، أراها من أيّ مكانٍ و في أيّ مكان، كانت صورةً طفوليةً جداً، لكن من قال بأن العجائز ليسوا أطفالاً حكماً؟

ابتسمتُ بسعادة، لا بد أن خالتي رضوى ستنام اليوم هانئةً دون أن تقلق من أن "تموت وحيدةً دون أن يدري بها أحد".

انتشلي من ابتسامتي منظرٌ مزعج ... حاجز!

لم يكن هذا الحاجز هنا عندما مررتُ منذ قليل، نعم .. إنه حاجزٌ طيّار، على الأقل هكذا كانوا يسمونه، حاجزٌ يأتي فجأةً يختفي فجأةً في المناطق التي تحتاج لفرض الأمن عليها \ يُفرض الأمن ؟ \

أكثر ما يخيف في فكرة الحاجز الطيّار، هو أنه غالباً .. يكون تحت سيطرة الشبيحة !.

بدأتُ بدراسة المآزق الذي أتجهُ نحوه بسرعة:

واحد، إثنان، ثلاثة، نعم ثلاثة .. ثلاثة عناصرٍ على الحاجز، أحدهم يقف بعيداً، يبدو صغيراً جداً لا يكاد يبلغ السابعة عشرة، يحمل سلاحه بتحفظٍ و

قلق، الثاني كان يجلس على كرسيّ عند باب الحاجز يلمّع سلاحه بقماشةٍ قديمة، كان وجهاً بلا ملامح، كل ما تستطيع أن تقوله عنه، هو أنه يرتدي بذلةً عسكرية، و لكنّ البذلة العسكرية كانت ترتديه لا العكس، فإن اختفت البذلة، يختفي من الوجود؛ الثالث كان يقف في الطرف البعيد أمام الحاجز، كان يبدو صعلوكاً في أواخر الثلاثينات، بعينين غائرتين، لحية رمادية شعشاء، و كرشٍ ضخّم يغطيه بأحزمةٍ حاويةٍ للرصاص، كان ينظر لي و أنا مقبلةً نظرةً اقشعر لها بدني، نعم، كنت أعلم ذلك، لقد كنت في خطر!

و كما غريبٌ في مجرى نهر هائج، لم أتمكّن من مغالبة أمواج خطواتي و هي تحملني إليهم.

عندما اقتربتُ من بوابة الحاجز وقف الثاني متكاسلاً رامياً بالقماشة التي كانت في يده على الكرسي بلا مبالاة، فيما دفع سلاحه لخلف كتفه

- "تفتيش."

مددت له حقيبتي، لم يكن بها الكثير من الأغراض، قلبّ فيها بسرعة، ثم رفع عينيه لي بنظرة هازئة، لا شيء هنا، أخذ يقلّبي بعينيه و ابتساماً صفراء تتراقص على زاوية فمه، أبعدتُ نظراتي عنه بسرعة، رفعتُ حقيبتي إلى كتفي و هممتُ بالمضيّ في طريقي، لكنه أخذ خطوةً سريعةً ليقف أمامي ساداً الطريق بوجهي...

- "ألا تخفين شيئاً هنا؟"

قال هذا و هو يمدُّ يده متحسّساً صدري بوقاحة، دفعتُ يده بسرعة بحركةٍ دفاعية، و أخذتُ خطوتين للوراء لأتعرّ بشخصٍ كان يقف خلفي، لقد

كان ثالثهم، ذو اللحية الشعثاء، أحسست بها على رقبتى، كما أحسستُ بجسمه يلتصق بجسمي، أطلق انفاسه على أذني وهو يهيمس :

- "إلى أين تهربين ... قبل أن تمتعينا؟"

وبدأت كل نواقيس الخطر تدق في رأسي، و أنا أحس بذراعيه تطوقاني فيما كانت يده تندس تحت ثيابي كحشرة كبيرة مقرفة ...

عشراتٌ من القصص كهذه سمعت، تعاطفتُ معها كلها، وبعضها ألمني و جرحني، و بكيت عند سماع الرواية الكسيرة لبعضها من فتياتٍ تمّ إذلالهنَّ و تحويلهنَّ إلى أداة متعةٍ لبشرٍ أقلُّ ما يقال عنهم أنهم حثالة المجتمع، لكن، في طبيعة البشر شيءٌ يدفعك لتعتقد بأنك مختلف، و بأن ما حدث لهنَّ لن يحدث لك، لكن، ها أنا ذي، و عليّ التصرف بسرعة!.

و من آلاف النصائح التي قرأتها للتصرف في مثل هذه الحالات قررت أن أرد بعنف، "قبصة، مرفق، خبط" " قبصة، مرفق ، خبط" " قبصة، مرفق، أخذتُ أردد في داخلي مستجمعةً كل شجاعتي و أنا أحس بيده تتسلل إلى أعضائي، "قبضة" رفعت قبضة يدي في ضربةٍ مباغطة تفجرت على أنفه، " مرفق" كان من المفترض أن أضرب بطنه بمرفقي بعد ذلك حتى ينحني، لكنه كان قد سحب يده من تحت ثيابي ليغطي وجهه بألم فيما استبقني و دفعني بسلاحه في ظهري بعنفٍ أوقعتني على ركبتي، سمعت بعدها صوتاً ألياً خلفي، انتفضتُ و أحسستُ بالدم يهرب من جسمي، أغمضتُ عيني

- "طوّل بالك أبو كيفو!"

جاء الردّ من أمامي، رفعتُ عيني لأراه ببذلته العسكرية واقفاً أمامي و على وجهه الخالي من الملامح ضحكةٌ قدرّة، ركّني بجانب رجله و تابع:

- "هذه الكلبة كانت ستتعبنا بلا طائل، و أنت تعرف جيداً من يجيد تربية أمثالها."

ضحكةٌ مخيفةٌ انفجرت من خلفي ..

- "أبو ضبعو!"

قالها و اقترب مني، سحبني من غطاء رأسي فتمزق بين يديه و انهال شعري على ظهري، رفعت يدي لألممه لكنه كان قد سبقني و أمسك به، شدّني منه بوحشيةٍ و هو يقرب أذني من فمه ..

- "بعد أبو ضبعو ستعودين لي زاحفة!"

رمانى أرضاً مجدداً و هو يبصق ...

- "هذا إن بقيتي حية!"

سحبني الآخر من ذراعي فيما زج هو سلاحه في ظهري، كانوا يسوقونني نحو عربةٍ قريبة، استوقفهم الصغير، رأيتُ في عينيه شيئاً دفعني لأنظر له بتصرّع، لسْتُ أدري ما حلَّ بي، كيف أستعطفُ شبيحاً قدرّاً و لو بنظرة! طبعاً لم يُعر لنظراتي أيّ اهتمام، و نظر بعيداً و هو يطلب منهم جهازي المحمول .

سخر ذو اللحية منه قليلاً، فيما سحب الآخر حقيبتي من كتفي و رمى بها إليه، إستخرَجَ جهازي منها بصمت، و مدّ يده لي بالحقيبة، أخذتها منه فابتعد

مختفياً، فيما تابع الإثنان جري نحو العربة، حاولت كثيراً أن أقاوم، شتمتهما بكل ما كان في قاموسي من مفرداتٍ بذيئة، لكن كل حركاتي كانت تزيدهم ضحكاً فيما كانا يكيلان لي الركلات و الصفعات، استمرت الرحلة في العربة بضعة دقائق حتى وصلنا إلى حاجزٍ آخر أكبر قرب مستشفى شيجان، فتح أحدهم باب العربة ونزل منادياً..

- "أبو ضبعو.. لقد أحضرنا لك هدية."

جنّة ضخمة كانت ما لمحت يقترب على آخر أضواء النهار، وذراعٌ تمتد من الباب المفتوح لتمسك بي، أنشبت أسناني بوحشيةٍ فيها ...

- "يا ابنة الكلب!" تبعتها قهقهةً عالية

- "لم أحضر لك أيّ هدية" تابع ذو اللحية " هي من النوع الذي تحب."

- "هاتوها!"

أيدي كثيرة امتدت تسحبني من ثيابي، من شعري، من ذراعي، حتى وصلت امامه، حاولت أن أهرب مجدداً، لكن صوته انسكب بارداً كالثلج ..

- "حلوة هذه الفتاة الصغيرة، ربما يجب أن أحضرها عوضاً عنك."

اتسعت عينا في رعب، كان أحدهم قد سلمه حقيبتني، حقيبتني التي وضعتُ فيها كأبي أم غبية .. صورة ابنتي.

- "الفرقان .. هممم..أسعد ألا زال أبو عنتر على حاجز جامع

المبشرين؟"

- "و بانتظار أن يخدمك في أي لحظة" ردّ صوتٌ بعيدٌ باستمتاع .

أمل...! أمل...! إلاّ أمل...! ركعتُ على الأرض و أطرقت رأسي, سحبتني و دفعني باتجاه غرفة الحراسة, مشيت و الدنيا تدور بي, إلاّ أمل...! إلاّ أمل...! و بصعوبةٍ قصوى تمكّنت من وادٍ صورٍ كثيرةٍ و صوتٍ أميرتي تبكي ... إلاّ أمل !.

دفعني أمامه بعنف, متعمداً إسقاطي على الأرض, تمكّنت من الحفاظ على توازني بصعوبة, أجلّتُ عينايا بسرعةٍ في الغرفة التي ربما تكون آخر ما أراه, كانت غرفةً معتمة, لا منفذٌ للنور فيها إلاّ الباب الذي كان يسدّه بجسده الضخم, صغيرةٌ كالقبر, جدرانٌ إسمنتيةٌ كئيبة, يصدر صوتٌ نشيدٍ بعثيٍّ متقطعٍ من تلفازٍ متناهي الصغر يقبع على طاولةٍ حديديةٍ رمى أحدهم عليها تشكيلةً من أمشاط المسدسات و خزائن الرصاص باستهتار, خزانهٌ معدنيةٌ يلتصق بها سريزٌ ضيقٌ قدّر في الزاوية الأخرى من الغرفة, و إلى جوارهما نبتةٌ خضراء, لولا فداحة الموقف لكنّ ضحكٌ ساخرٌ من المفارقة السخيفة !

أصوات فهقات بدائية كثيرةٌ تبعته و هو يدخل ورائي, صوت أحدهم ارتفع ضاحكاً :

- "الله حيو أبو ضبعو!"

ردّ على التعليق بضحكةٍ شاذّةٍ متقطعة, أشبه بصوت نداء الضباع, ارتعدت كل فرائضي, و لم أتمكن من منع انتفاضةٍ قويّةٍ بدرت عني مع سماعي لصوت الباب و هو ينطبق بعنف .

ازدادت الغرفة عتمةً و كآبة, ضغط على زرّ الضوء ليقتمحما خلال ثواني ضوءٌ أبيضٌ شاحبٌ أشدّ كآبةً من الظلام نفسه ...

أحسست بفوهة البندقية بين أكتافي تدفعني بقسوة، سرت أماماً بضعة خطواتٍ حتى وصلت لزاويةٍ من الغرفة كانت بقع الدماء واضحة فيها، على الجدران، على الأرض، في كلِّ مكانٍ حتى على السقف !

صورٌ سبق و لمحتها في جولاتي بين اليوتوب و الفيس بوك ما كنت لأجرؤ على مشاهدتها كاملةً، تعليقاتٌ جريئةٌ و تصريحات دامية تواترت على ذهني بسرعةٍ رهيبه، تداخلت في ضجيجٍ أصمٍّ حواسي كلها، و سرعان ما أخرجتها أصوات صرخاتٍ كثيرةٍ و تضرعاتٍ و نواح، قطعها صوت فحيحه في أذني:

- "تحسين نفسك كالرجال؟! سأريك اليوم ماذا تعني كلمة رجل!"

أردتُ أن أردّ له الإهانة، أن أشتمه، استحضرتُ صوتي فلم أجده، و بدأ العرق البارد يتصبب مني و أنا أحسُّ ببندقيته تجول على ظهري، تسري على جسدي كثعبانٍ سامٍّ، لمستُ أصابعي بقعةً داكنةً على الجدار، أحسستُ بأنيها و ألمها، دفع رأسي حتى التصق وجهي بالجدار، أقحم السلاح في ثيابي و زجه في بعنف، أفلتتُ مني صرخةً كتمتها بسرعة ... ملأتُ قهقهته الغرفة كسحابةٍ صفراء و تردد الصدى في أذني ألف مرة، أعاد الكرة مرةً أخرى، عضضتُ على شفتي كاتمةً صوتي بعناد " لن أمنحه فرصة التلذذ بعذابي " زفرَ بغضب، ابتعد عني قليلاً و صرخ مزمجرأ ..

- "استديري ."

لم أجد حراكاً و قبعْتُ ساكنةً في زاويتي بهدوء، جذبني بوحشية..

- "استديري يا عاهرة!". دفعني حتى أحسستُ بفقراتٍ ظهري قد اندمجت بالحائط الإسمنتي، زدتُ العض على شفتي السفلى مانعةً أيَّ صوت، لطمني

على خدي بعنف، سقطتُ ارضاً وأحسستُ بطعم الدم في فمي، سال خيطُ رفيعٌ من الدماء من جانب شفتي، عادت الصور لتتدافع في مخيلتي، مشاهد مختزنةٌ من أفلامٍ كئيبة، و قصصٍ صفراء، صورٌ لفتياتٍ على صفحات الحوادث طُلِّت أعينهم بخيطٍ أسود للحفاظ على "خصوصيتهن" مخزونٌ كامنٌ من الرعب في داخل كل امرأةٍ شرقية، أطلت من عيني، لا بد أن ما شاهد قد أمتعته، بدأ يلهثُ بحيوانيةٍ بشعة، و مدَّ إصبعه ليغتَرفِ خط الدم من على وجهي.

كنتُ حتى تلك اللحظة قد نجحتُ في تجنب النظر إلى وجهه، نظرتُ للأعلى لأرى عينين حمراوين جحظتا بوحشيةٍ مقرّزة، شفتين يقطر منهما اللعاب وهو يلعق الدم من على إصبعه، تردّد صدى الإسم في زحمة افكاري " أبو ضبعو".

أنهى حركته الإستعراضية الرخيصة، واقترب مني ليكبّل يدي بإحدى يديه، ويقحم رأسه في صدري كحيوانٍ مفترس، و على الرّغم من نهشه لجسدي بأنيابه و أظفاره، و على الرّغم من الألم الشديد، لكن الشعور الذي سيطر عليّ كان شعوراً بالقرف و الاشمئزاز، أحسست كما لو أن ديدأنا تسري تحت كل بقعةٍ من جلدي ... تقلّصت ملامح وجهي لتعبّر عن إحساسي، رفع رأسه وواجه نظراتي بنظراتٍ شيطانيةٍ مجنونة، أحسستُ بالشرر يتطاير من عينيه، سحب البندقية من على كتفه و ضربني بها مجدداً على رأسي بقسوة، سقطتُ أرضاً مجدداً، تمنيتُ لو أفقد وعيي، أما آن لجسدي أن يهار؟! جذبني من شعري بسرعة، أفلتتُ مني أنّهُ أكره نفسي لإطلاقها حتى اليوم، قفد اشتّم فيها ضعفي و سيطرته، لمع بريقٌ متوحشٌ في عينيه، و لاح التواءٌ مستمتعٌ على شفتيه الملوّثتين بدمائي، لعقهما وهو يخرج من جيبه مقصاً حديدياً كبيراً بدأ

ينشبه في خصلات شعري، يرميها خصلةً خصلةً على الأرض و هو يضحك  
ضحكاته المريضة المتقطعة .

أدركتُ سبب ضحكاته عندما تغلغل ملح دموعي في جرح شفتي بحرقه لم  
تكن لتقارن أبداً بألم الذكريات المحتضرة على أرض الغرفة، صورتها و هي  
تمسّط شعري بفرشاتها الزهرية الجميلة و تشبّك شرائطها الملونة فيه، و هي  
تبارزني من منّا شعره أطول و أنعم ملمساً، و هي تزرع زهورها بين الخصلات  
السوداء الطويلة، و هي تلاحظ الشعيرات الفضيّة التي بدأت تغزو رأسي و  
تضحك و تعدها كنجوم ليلة صيفٍ صافية، ذكرياتٌ يموت كلُّ منها على حدة  
مع خصلة شعري جديدة، تساقطت الدموع ملامسةً إياها لتمنحها قبلة و داعٍ  
أخيرة، ذكرياتٌ ماتت، تشيعها ضحكاتٌ مجنونةٌ من شبيحٍ قذر!

أمل .. عليّ أن أفكر بأمل، هي الآن بأمان، بانّت لي ضحكها الرقيقة تقتحم  
بحور الظلمة التي أحاطت بي، "ستبقى بأمان، و سأعود لها".

ضحكها زرعت القوّة في روحي المتعبة، ابتلعتُ غصتي و دموعي و ارتديتُ  
إزارَ شجاعتي مجدّداً، و رسمتُ نظرةً متعاليةً على وجهي و هو يفتالُ ضحكات  
السمّر على كتفيّ، و مع آخر خصلات شعري ازدادت ضحكاته جنوناً و هياجاً،  
أمسك بندقيته بيده و قرب فوهتها من فمي..

– "العقبا ."

اتّسعتُ عيناوي لهولِ الفكرة! أوجد كائنٌ بهذا الجنون ؟!

دفعها نحو شفتي بقوة، أحسست بعدها بانكسار سنّ أو اثنين من أسناني  
الأمامية ..

- "إلعي!" نظرت له بذهول، غير مستوعبةً للفكرة، ضربني بركبته في جاني الأيسر هادراً :

- "إلعي يا \*\*\*\*\*"

"أمل... لن يصلوا لها، لن يصلوا لأمل" مددت لساناً مضرجاً بالدم لمستُ به المعدن البارد بتردد، أقحم الفوهة في فمي بيد و بدأ يحل بنطاله مخرجاً عضوه بيده الأخرى .

الآن سأدفع الثمن، سأدفع ثمن سكوتنا عقوداً على حكمٍ فاشيٍ عنصريٍّ مجنون، قام على أيدي المرتزقة و المجرمين و المرضى، الآن .. الآن سأدفع الثمن!

زاد من إقحام السلاح في حلقي، لم أملك نفسي فتقيات، تقيأتُ ألمي و خوفي، تقيأتُ كره و قهري، فخرجتُ كلُّ مشاعري الإنسانية على هنية سائلٍ أصفر اختلط بالدم.

سحبَ سلاحه لاعناً بسخط، رماني أرضاً و أخذ يركلني برجليه مراراً، ركلي و ركلي و ركلي، ثم سحبني حتى استقرت على ركبتي أمامه، عرفت ماذا يريد، أغمضتُ عيني و استحضرت صورة أمل، قررتُ أن أفصل جسدي عن روحي و أغيب معها في حلمٍ جميل، أن أهرب مع طفلي الجميلة؛ لم أعد أشعر بجسدي، لم أعد أشعر بشيء ... إلا بابتسامتها الرقيقة و رائحة الزهور التي تزين شعرها الجميل .

صوتٌ ضرباتٍ عنيفةٍ على الباب سحبني عنوةً من حلم لم يبدأ بعد ..

- "أبو ضبعو... إفتح الباب!"

صرخ بغضبٍ و حشرج بصوتٍ حيوانيّ

- "يا \*\*\*\*\* لماذا تقاطعي؟!"

- "إفتح يا أبو ضبعو, أتركها الموضوع خطير!"

سمعتُ صوتَ خطواته تبتعد, إنهرت على الارض غارقة في دمائي و قبيي و دموعي, أسلمت نفسي للظلام, لا بد أن أمل في الطرف الآخر منه .

obeikandi.com

## الفصل الثالث

obeikandi.com

( ١ )

أصواتٌ كثيرةٌ متداخلةٌ بدتْ كحلْمٍ بعيدٍ يحاول أن يخترق جدران عتمتي،  
تجاهلتها جميعاً وقبعتُ باسترخاءٍ في بحر الظلمة اللذيذ، بدأ العتم يتسرّب إلى  
كل حواسي بهدوء، أحسست بسلام تام... نعم، أنا هنا بأمان، لقد غلّفت روجي  
بأوشحةٍ من اللاوعي، فليفعلوا ما يشاؤون بجسدي، روجي باتت حرّة، أنا  
بأمان، لن يصلوا إليّ هنا ابداً !

غبتُ أكثر في غياهب عتمتي ... أكثر ... وأكثر ... ما كان ليخرجني منها إلا  
صوتٌ واحدٌ فقط، صوت بكاء ... بكاء طفلةٍ صغيرة ...

أمل !

فتحت عيني بهدوء، ارتسم أمامي سقفٌ أبيضٌ مألوف، غطاءً أبيضٌ يغطي  
جسمي، نسماتٌ ليليةٌ هادئةٌ تتلاعب بستارةٍ رقيقة، نعم .. أنا في غرفتي، على  
سريري، ربما .. ربما كان كابوساً فحسب !

رأسها الصغير كان مدفوناً بين يديها على الغطاء، حبيبتي كانت تبكي!

مددتُ يدي ووضعتها على رأسها و مسحْتُ على شعرها الحريري بحنان،  
رفعتُ رأسها لي بسرعة، عيناها كانتا حمراوان من البكاء، و الدموع تلمع على  
وجنتيها المبللتين كزهرتي نرجس تتلنلان سحراً في صباح يومٍ ماطر .

- "لماذا تبكين يا حبيبتي؟"

مدتُ ذراعها و احتضنتني بلهفةٍ و هي تشهق بالبكاء، ندتْ عني صرخة ألمٍ  
خافتة، كان جسمي كله يؤلمني ..

- "لا يا حبيبتي خذي حذرك، ستؤذين جراح ماما هكذا ."

اتسعت عيناى بذهولٍ لسماع هذا الصوت ..

- "سمير؟ .. ما الـ ..."

جلس بجانبي و أمسك بيدي هامساً مهدوء ..

- "كل شيءٍ على ما يرام الآن، كل شيءٍ على ما يرام ."

أجلتُ نظري في الغرفة بشكّ، هي حتماً غرفتي، هذي خزانتى خطّطتُ عليها بعض أبيات الشعر و رسمت أميرتي زهرةً جميلةً مثلها و الكثير من القلوب الحمراء، هذه صورتنا سوياً نضحك من قلبنا و لكأنتنا نملك العالم بأسره، و هذه طاولتي تقبع عليها أوراقي و جهازي المحمول، نعم هي غرفتي، لِحظتُ أبى على باب الغرفة غارقاً في حديثٍ منخفضٍ مع طبيب العائلة .. الطبيب .. و هذا الألم .. إذاً لم يكن كابوساً !

لا بد من أن سميراً لاحظ النظرة القاتمة في عيني و قرأ منحى أفكاري فانتشلي مما كان ليكون إبحاراً في عاصفةٍ من الذكريات السوداء ..

- "سهام، لقد انتهى كل شيء، أنتِ الآن بأمان ."

عيناها الواسعتان الخضراوان كانتا تحدّقان فيّ بقلق، لويت شفتي الجريحة على هيئة ابتسامةٍ لأمسح نظرة القلق البغيضة عن وجهها ..

- "حبيبتي أنا بخير، لا تقلقي . " ثم نظرت لها نظرةً تجيدها الأمهات فقط " هل أنهيتِ دروسكِ ؟"

بدأت بالتأفف فضحكك باستمتاع، وفي قلبي لمعت شرارة من السعادة، لا شيء .. لا شيء في الدنيا كلها يقاوم الألم ويقشع الظلمات كبراءة الأطفال. قبّلتُ يدها الرقيقة بحبٍ و طلبت منها أن تنهي دروسها وتخلد للنوم، مسحّت بيدها الصغيرة على غطاء رأسي، قبّلتُ يدي بطاعةٍ و خرجت بهدوء، فيما اقترب والدي مني...

- "أنت بخير يا حبيبتي؟"

كان الحزن يتقاطر من عينيه الحنونتين، أنا لم آت على ذكر والدي قبل الآن، ربما لأنك عندما تصف غرفةً غنيّةً بالتفاصيل تهمل وصف الجدران التي تستند إليها، فقد اعتدنا على أن الجدران من المسلمات، أبي كان حصني وجداري بوجه الأيام.

ألقي الضوء الخافت على شعره الأبيض ظللاً حزيناً فيما أحسست من ملامح وجهه بمعنى كلمة الانكسار، نظراته الحزينة اخترقت روعي كسهيم من نار، والحنان في صوته الدافئ أطلق سراح دموعي من سرايب الألم، كظمتها بصعوبةٍ وأشحت بناظري بسرعةٍ وأومات برأسي .

وضع يده على كتف سمير...

- "شكراً يا بني، لست أدري ما كنا لنفعل بدونك!"

- "لا شكر على واجبٍ يا عم ."

لم أفهم شيئاً! ما الذي حدث؟ ما الذي جاء بسميرٍ هنا! ولم يشكره أبي؟ هل أنقذني مرةً أخرى! كيف؟

فتحت فمي لأسأله ألف سؤال، قام من جلسته إلى جانبي و ربت على كتفي..

- "إرتاحي اليوم يا سهام، أخلدي للنوم وسأتي غداً لأطمئن عليك."

قال الجملة الأخيرة وهو ينظر لأبي الذي هز رأسه علامة الموافقة، وقبل أن أتمكن من الاحتجاج خرج سمير فيما مدّ أبي يده لي بكوبٍ من الماء ..

- "الطبيب قال بأنك بحاجة للراحة."

ساعدني على شرب بضعة أقراص، أفكاري كلها كانت مشوشة، و أحاسيسي كانت تتراقص في جنبات صدري بجنون، كيف يجتمع هذان؟ أهم رجلين في حياتي!

- "أخلدي للنوم الآن يا حبيبتي حمداً لله على سلامتك ."

لازال الألم الحنون يتفرق في عينيه الحبيبتين، "أنا آسفة! لقد خذلتك يا أبي " هتف قلبي بأسى وهو يخرج من الغرفة، وما أن أغلق الباب خلفه حتى غرقتُ في نوبةٍ من البكاء الصامت، استمرت الدموع في الانسكاب و جسدي بالارتعاش طويلاً حتى غفوت .



أطلت الشمس بترددٍ لترمي بأشعتها على أطراف نافذتي، تسَلَّتْ ببطءٍ  
كأنما كانت تخشى الظلام المنبعث من ذاتي الجريحة، امتدَّتْ أشعتها بهدوءٍ  
حتى بلغت سريري معلنةً انتهاء معاناة ليلتي الطويلة، فتحتُ عيني لأطلق  
مخزوناً جديداً من الصور و الذكريات، تناثرت الدموع على وجنتي، و من  
كوابيسي الليلية إلى صحوتي النهائية تسَلَّلَ الشعور الأليم بالانتهاك، و وجع  
اللَّمسات القذرة على جلدي، جلدي الذي وددت لو أسلخُهُ و أرميه بعيداً  
راميةً معه كل بصماته و آثاره عليّ، لكم كنتُ ضعيفة !

دخَلتُ إلى غرفتي بهدوءٍ نسمةً ربيعية، أغلقتُ عيناى بسرعةٍ مصطنعةً  
النوم، مسحتُ خدي المبلل بالدموع بصمت، و مررت أصابعها بين خصلات  
شعري المشوّهة، اقتربت منى و قبلتني على جبيني قبلةً ملائكيةً رقيقةً كلمسة  
نور، تقلّصت عضلات و جبي بألم و أفلت منى نحيبٌ حزين.

لكم تدهشني هذه الطفلة بجَلدها و حكمتها، أمسكتُ بيدي كأَمِ حنون ..

- "حبيبتى ماما لماذا تبكين ؟"

لم أدِرِ بِمَ أرد، فكرتُ و فكرتُ و فكرت... ماذا أقول لها؟ أقول أن أمها  
ضعيفة؟ أمّها لم تتمكن من أن تشتّمه حتى؟! أقول لها بأنّها كانت أداة متعةٍ  
لحيوانٍ بشري؟! أقول لها بأن الدنيا قدرةٌ حقيرة؟ ... ماذا أقول لها؟!

وضعتُ يدها على شعري مجدداً ..

- "الأنهم قصوا شعركِ الجميل؟"

ضحكت من خلال دموعي ..

- "الآن خسرتُ منك، و بات شعرك أطول من شعري!"

حضنتي برقةً مراعيةً جراجي..

- "لكن شعرك بات يشبه شعر بطلة قصتي."

- "أية قصة ؟"

لمعتُ عينها و خرجت من الغرفة بسرعة، و عادت حاملةً كتاباً للحكايات كنت سبق و اشتريته لها، فتحت الكتاب لتعرض علي صورهِ الملونة، لسببٍ مجهول كان الفنان قد اختار لبطلة القصة شعراً قصيراً أسوداً، تزينه وردةٌ حمراء كبيرة ..

- "أترين؟ شعرك صار مثلها لا ينقصك إلا الوردة!"

- "أنتِ أحلى وردةٍ يا حبيبتي."

ابتسمتُ و ضممتها لي بحب، أخرجتُ من جيبي مشطها الزهري و أخذت تسرحُ خصلات شعري و هي تتمتم بكلمات أغنيةٍ مدرسية .

دخل أبي الغرفة و هو يرسم ضحكةً كبيرةً على وجهه الحنون ..

- "صباح الخير أيتها السيدتان."

- "جدي!" هتفت بشوق، حضنته و منحتُه قبلة الصباح "أترى! ماما

صارت تشبهها." أشارت إلى الصورة على كتابها بحماس، فهز رأسه برضى، لمحتُ نظرةً في عينيه كان يغالبها و هو ينظر لشعري ووجهي، كان يغالب

شعوراً بتت أعرفه جيداً بعد ليلةٍ طويلةٍ من الانهزام ..

- "اليوم سأوصل أمل للمدرسة، ارتاحي أنتِ يا حبيبتي و سأبلغ المديرية بأنك مريضة."

أومأت برأسي فيما نظرتني متفحصاً بقلق، ستكونين بخيرٍ وحدك؟

- "نعم يا بابا، أنا بخير، لا تخش شيئاً."

- "أمل اذهبي و جهزي نفسك للمدرسة." قالها دون أن يرفع نظراته القلقة عني في محاولةٍ لقراءة أحاسيسي، خرجت أمل من الغرفة، جلس إلى جانب سريري و أطرق رأسه بهدوء، النظرة الكسيرة عادت لعينيهِ الحبيبتين، أشحتُ بوجهي لأهرب من الألم المتدفق من قسماته كلها، لكن صوته الحنون اجتاح سحابة جرحي ..

- "حبيبتي، ما قد حدث حدث، لا قبل لي و لا لك بتغييره، الله شاء أن يمتحنك، كوني على قدر المسؤولية التي عهدتك عليها."

ثم تابع بصوتٍ خفيضٍ كأنما ليحدث نفسه "المؤمن مبتلى".

قام من جانبي و استطرد مغيراً الموضوع و مغيراً نبرة صوته معه...

- "سمير سيأتي اليوم ظهراً عند انتهاء نوبته."

نظرتُ له باستغرابٍ مُطلق، كان يتحدث عن سمير بألفةٍ جمّة كأنه أحد أفراد العائلة ! ردّ على نظراتي المتسائلة:

- "سميرٌ هو من أعادك لنا البارحة، لولا لطف الله و اهتمامه..."

ابتلع باقي جملته كأنما ليحميني من مجرد ذكر الكلمة، أبي الحنون، لكم يؤلمني ألمك، لكم يقتلني كوني أنا سبب ألمك، حاولت العودة لأرض الواقع، أردتُ أن أعرف المزيد..

- "كيف عرف بوجودي هناك ؟ وكيف تعامل معهم؟"

- "طلب مني أن أتركه هو ليروي لك ما حدث." سكتَ قليلاً، بدى كأنه يهيمُ بقول شيءٍ ثم تراجع، سكت لبضعة ثوان ثم نظرتُ نظرة عميقة ...

- "إنه إنسانٌ طيب."

- "لكنه من جُند الأسد!"

هز رأسه بصمت .

- "ستكونين بخير؟" سألتني مجدداً

- "نعم يا أبتِ لا تقلق ."

منحني قبلةً على جبتي و خرج، بضعة دقائق و سمعت صوت انطباق الباب، لقد رحلا، بدأت الأفكار السوداء تطوف بخيالي، هربتُ من سريري و أغطيتي، لمحت كتاب القصص على الطاولة، أحقاً بتتُ أشهها ؟

وقفتُ لأتأمل شعري أمام المرأة، خصلاتٌ مشوهةٌ شعثناء، لم يكن قصيراً كالفتاة الحلوة في القصة، كانت السادية الوحشية ظاهرةً من الطريقة التي قُطعت بها خصلاته، نزلت بنظري من شعري إلى وجهي، عيناى منتفختان لكثرة البكاء، كدمه زرقاء كبيرةً على جانب ذقني، في حين انتفخت شفتي

السفلية مخفية قطعاً في جانبها، باعدت شفتي و تلمست كسراً في أسناني الأمامية، ترددت قليلاً ثم قررت أن أتابع جولتي الاستكشافية: خلعت ثوبي لأفاجأ بكم الضمادات التي تغطي جسمي، بدأت أنتزعها واحدة تلو الأخرى و ألمس جراحي، أضغطُ عليها لأستثير ألمها في انتقامٍ غاضب، جراحٌ طوليةٌ غائرة انتشرت لتغطي مساحاتٍ بأسرها في كافة أنحاء جسمي، لقد كان يمزق جلدي بمخالبه القذرة تمزيقاً ! أما على صدري، فكانت آثار أسنانه ظاهرةً في جراحٍ متوحشة نهشت لحمي بجنون، ما سلّم من الجراح كان مغطى بالكدمات، كان كل جرح يبصق صورةً أليمة، كانت كل كدمة تئنّ بألمٍ صامت، لم أحتمل كمّ القذارة على جسدي، هرولتُ نحو الحمام، فتحتُ الصنبور لأشتم بغضب، المياه كانت مقطوعة! احتاج مني الأمر خمسة دلاءٍ من المياه لأبعد اللمسات المتسللة على جسدي، ولأمحو آثار بصماته النجسة من عليّ، و ما أن انتهيتُ حتى تكوّرتُ على أرض الحمام، ضمنتُ ركبتيّ إلى صدري، و أخذت أقضم أظفاري بقسوةٍ حتى غفوت .

أيقظني صوتٌ لم أعِر له بالأ منذ زمن، صوتٌ انساب لروحي المحتضرة ليمنحها لمسةً حنونة، أحسستُ بشلالاتٍ من الشجن تكسر قيد العتم، دفء هادئٌ أذاب صقيع ذاتي، انقشعت غيوم الغضب و تراجعت فئران العجز، هاجرت خفافيش القسوة و الكره و تفتّح في قلبي برعم سلام، تمتتُ الشهادتين و الدموع تفيض من عيني بحب، كان نداء الأذان، يذكرني بأن باب الرحمن مفتوحٌ لكل مستضعفٍ كبير ...

كنتُ أحتاج له، لسنده و رحمته، لوجه و حكمته، نهضتُ مهدوء، ارتديت ثيابي، وضعت عليّ غطاء الصلاة و لبيت النداء، يا الله، إن كنت نسيتك في غمرة ألمي فأنت لا تنسى، حكمتك فوق كل شيء، تردّد صدى صوت والدي

الحزين: " المؤمن مبتلى " و تذكّرت دعاء الرسول: " إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي " إرحمنا يا أرحم الراحمين .

كنتُ قد فقدت إدراكي للوقت, فقد جاؤوا ليجدونني على سجادة الصلاة أدعو و أبتهل, وضعتُ حقيبتها جانباً و جلست إلى جانبي تشاركني الدعاء, فيما نظرت لي أبي نظرةً اشتقت لها, نظرة فخر .

قمتُ من على السجادة, لتفاجئني حبيبي بوردةٍ حمراء..

- "كما البطلة في القصة." قالت وهي تبتسم.

أحضرتُ مقصاً من على طاولتي ورتّبتُ خصلات شعري على قدر الإمكان, ثم سلّمتهُ شعري لتُعمل مشطها فيه, و لتشبك فيه و ردتها بحب, و ما أن انتهتُ حتى سمعتُ دقاتٍ على الباب, ها قد جاء سمير .

استقبله والدي في غرفة الجلوس, فيما اتجهتُ أنا إلى المطبخ لأحضّر لهما القهوة, كان يحبُّ قهوته سوداء...كلون عيني, هكذا كان يقول, كان يقول بأن طعمها المرّ يتناسب في تناقضٍ ممتعٍ مع حلاوة بسماتي وهي تتسلل إلى روحه, كان يقول أيضاً ....

هزّزتُ رأسي بسرعةٍ غاضبة, " أما زلت تصدقين؟! " وأدّتُ أفكاري في مهدها فيما تسللت إلى خيالي صورة وحشٍ كربهٍ يضحك, و يضحك, و يضحك مصوّباً سلاحه نحوي و ...

انسكبت القهوة على النار، سحبتها بسرعة و أطفأت الغاز بسرعة، ليتني  
أتمكن من سحب روعي من عوالم الألم بهذه السرعة، ليتني أتمكن من إطفاء  
ذكرياتي بهذه السهولة !

قدّمتُ لهما القهوة و جلستُ جانباً بهدوءٍ متحفّز، دَلِّلاً قهوتهما ببعض  
الأحاديث الرجالية السريعة .. "سعر صرف الدولار " "الاقتصاد " "الباذنجان  
و الطماطم و طمع التجار " كانا يدوران بخفّة بعيداً عن ذكر أيّ شيءٍ يتعلق  
بالحرب، المعارك، و الجيشين، كانت الثلاث نجوم الحمراء و النجمتين  
الخضراوين تطلّان على الحديث بانتظار اقتناص فرصةٍ لتفجير ألغام الحوار،  
لكلّهما و كأني مواطنٍ سوري، كانا يجيدان مهارة الدوران حول المواضيع  
"المحرّمة".

بقيتُ أتابعهما بحذرٍ منتظرةً لغماً لم ينفجر، وضع أبي فئجان قهوته، تعلّل  
بمكالمة هاتفيةٍ كنت أعلم أنه لن يجريها، ثم انسحب خارجاً بهدوء .

قبعتُ صامتةً لعدة دقائق، مشاعر كثيرةٍ مختلطة أخذت بناصية أفكاري،  
فسبحت معها في أقانيم من ألمٍ يغلفه الترقب ..

- "أحضرتُ لك شيئاً .."

و سحب من جانبه مفاجأةً بيضاء معطرة، طوقٌ من الياسمين ! لقد أحضر لي  
طوقاً من الياسمين، تشابكت أيدي حبّاته البريئة بحب، مقدّمةً لي أسمي  
معاني الجمال، لم أستطع منع اللون الزهري من التصاعد إلى وجنتي  
الشاحبتين " لقد تذكر " كانت كلمةً جالت في فؤادي بفرح طفولي، لكن

كبريائي الجريح نفاها بقسوة، رافضاً أيّ بسمّةٍ تخترق عزاءٍ روحي في حضرة  
موت كرامتي!

اختفى البريق الوردى من عيني بسرعة، رميتُ الطوق أرضاً و تمتعتُ  
بصوت جليدي:

- "في بلدي يموت الياسمين!"

ثم نظرت له نظرة سخرية جارحةٍ و تابعت:

- "لا بد من أنك خير من يعرف ذلك."

أطرق رأسه بهدوءٍ فيما غامت عيناه السوداوان، بحثتُ عن نشوة الانتصار  
في ذاتي، فرأيت ذاتي كسيرةٍ جريحةً أسيرةٍ إعصارٍ من الندم و الحيرة، لقد ألمني  
ألمه بشدة، قررت أن أحررنا من قبضة استهتاري

- "كيف....."

لم يكن من السهل علي أن أتابع، عضضتُ على شفطي لكن الجرح فيها  
أجبرني على أن أفلتها بسرعة، رفع رأسه لي، أغرقني بنظراتٍ احتوت ألمي و  
جنوني، لسببٍ غامضٍ أحسست بالأمان، استجمعتُ شجاعتي و أكملت:

- "كيف وجدتي، و أحضرتني هنا؟"

صمتَ لبضع دقائقٍ كأنما ليحارب طيفاً من ألم، يكبل لسانه ..

- "تقصدين أبو ضبعو؟"

مجرد ذكر الاسم كان بمثابة إطلاق ألف رصاصية تستقر في صدري بعنفٍ غادر، اقترَب مني و حضن يدي في يده كأنما ليمنحني شيئاً من قوّته، استجمعت مشاعري المشتتة وهربت إلى قبضته الحنون على كفي، نظرتُ لها مطولاً، ثم رفعت له عينين دامعتين وأمأت له بالأم .

أشاح بنظره بعيداً، ربما لم يُطق رؤية دموعي، بدأ روايته بصوتٍ بدا متهدجاً لكنه سرعان ما سيطر عليه ...

- "كنتُ جالساً في مناويتي المسائية حين رنّ هاتفي، رأيتُ رقمك على الشاشة حسبت انك ..."

تردد قليلاً ربما لافتقاره للكلمات المناسبة، تجاهل إكمال جملةٍ كنتُ بأشد ما احتاج لسماعها ...

- "المهمُ أن الصوت الذي جاءني من الطرف الآخر، لم يكن صوتك، كان صوت شابٍ صغيرٍ يهمس بتوتر: "تعرفُ صاحبة الهاتف؟" فرددت عليه بقلق " من أنت ؟ " فردّد مجدداً بإصرار "تعرفُ صاحبة الهاتف؟" رددتُ بالإيجاب .. " لقد أخذوها لحاجز مستشفى الشيحان ... أبو ضبعو، هي بخطر حقيقي، إلحقوها! ".

عاد إلى ذاكرتي وجه شبّيحٍ صغيرٍ و هو يطلب هاتفي المحمول متحاشياً النظر إلى وجهي، تذكرت نظرة الاستعطف التي منحته إياها، تراهُ هو ؟ تابع سمير يهدوء ..

- "لم يُملني حتى أسأله أيّ شيء، فما أن أنهى جملته حتى أقفل الجهاز تماماً، أما أنا فقد ارتعدت أوصالي كلها لدى سماع اسم أبو ضبعو،

فاسمه ليس بخافٍ عني، ذاك الساديُّ المجنون " تسلل الغضب إلى صوته و ضمّ قبضتيه في حركةٍ عصبية " لست أدري كيف أوقفتُ سيارةَ أجرةٍ و وصلت إليك، أخبرتهم أنكِ .." تردد قليلاً في الكلام، لكن نظرةً متسائلةً مني أجبرته على أن يتابع "أخبرتهم أنكِ عشيقة قائد الشرطة، فدخلوا عليه و أوقفوه و بهذا تمكّنتُ من إنقاذك من برائته ."

- "إذاً فالعاهرات فقط هن من يتمكنّ من إنقاذ شرفهن ؟  
يا للمفارقة!!"

قلتُ بغضبٍ مكبوت، لكنني ابتلعتُ جرحاً آخر سدّد إلى كرامتي الشهيدة،  
أيضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟! لكن على الرغم من ذلك إلا أن شيئاً في  
الحوار بدى لي كخبيرٍ مُفرح، على الأقل لكل امرأةٍ شرقية ..

- "حين نادوا عليه بأن الأمر خطير، ذاك كان أنت ؟ "

- "نعم .." ألف ألف إعصارٍ هائجٍ غزى عينيه و هو يتمتم بأسف "  
دخلتُ و رأيتك قابعة على الأرض جريحةً فاقدةً للوعي." فرّت من عينه دمعاً  
حاول أن يبتلعها بسرعةٍ و هو يستأنف بحزن "أنا أسف فقد تأخرت عليك ."

أقلت الخبر من شفتي بهدوء

- "لم تتأخر كثيراً ."

نظرتي بتساؤلٍ فكّررتُ جملي و أنا أنظر في الفراغ ..

- "لم تتأخر كثيراً ."

ثم نظرتُ له نظرةً عميقة، فهم مغزى جملي، لم أركز في ملامح وجهه لكن يديه أمسكتا بيدي برقّةٍ ورفعهما إلى شفّتيه، سحبتهما غاضبةً ..

- "ما الفرق؟! إن لم يلتمني كليّةً؟! إن لم ينل من شرفي فقد اغتصب كرامتي كاملةً."

صرختُ فيه بغضبٍ و غادرتُ الغرفة حانقةً عليه و على نفسي و على الدنيا بأسرها، و في طريقي إلى الخارج تعمّدتُ أن أدوس بقدمي طوق الياسمين في محاولةٍ خفيةٍ لإزهاق روح برعمٍ ياسمينٍ بدأ بالتفتح في صحراء روعي المعذبة .

أمضيتُ باقي اليوم في غرفتي أقطّر الذكريات و أعتّقها في زجاجاتٍ من غضبٍ و غلّ، حتى محاولات أميرتي الصغيرة لإخراحي من حالة التصخّر التي وصلت إليها باءت كلها بالفشل، فأخذتُ رسوماً و أقلامها و غادرتُ الغرفة بصمتٍ حزين، أغمضتُ عينيّ بألم، "أسفة يا حبيبي، قلبي الآن لا مكان فيه للسعادة، لا مكان فيه للأمل . " بعد قليلٍ دخل والدي الغرفة، تحدّث كثيراً، لكنني لم أتمكّن من متابعة كلمةٍ مما قال، و عندما لاحظ شرودي المستمر بدأ في تلاوة آياتٍ من القرآن، لم تتمكن الآيات الرحمانية من اختراق القشرة الغليظة من الغضب التي غلفت روعي بإصرار، بل على العكس ... وددتُ لو أصرخ في وجهه: " أنا لسا ممسوسة! أنا لم أجنّ بعد! اتركني، اتركوني كلكم، لست أريد أحد، لست أحتاج لشفقة أحد !"

لاحظتُ الألم على ملامحي، ربّت على كتفي و رحل ليتركي للوثة جديدةً أغرق فيها بيأس، اختلطت الصور و المشاعر، صورة أبو ضبعو و هو يمشي على أربع،

يجري نحوي لينهش في لحمي، أصرخ بألمٍ فيما تختلط صرخاتي بضحكات  
سمير، وهو يمسك برسن أبو ضبعو..

نعم لم لا، فكلاهما انتهكني! الاول انتهك جسدي و عرضي، و الثاني انتهك  
قلبي و أحلامي !

دَقَاتٌ على بابي المغلق زادت من ضيق صدري و اختناقِي، حبستُ بداخلي  
الكثير من الصرخات و الدموع، و اطلقت عوضاً عنها رداً بصوتٍ جليدي:

- " تفضل."

دَخَلْتُ بوجهها الطيب و رائحتها الذكية التي يختلط بها ماء الورد مع لمحةٍ  
بسيطةٍ من عطرٍ زهرِيٍّ قديم، كان القلق قد زاد من تغضّبات وجهها و أضفى  
على بشرتها شيئاً من الشحوب الباهت، و ارتسمت في عينيها الحبيبتين نظرة  
ذنبٍ طفولية .

- "سهام ... " غصّة بكاءٍ خنقت صوتها المرتعش، حاولت أن تتكلم و  
حين خانها صوتها عضّت على شفتها و رفعت يدها إلى فمها كاتمةً شهقة بكاء.

كان لقلقها و ألمها فعل السحر، يقولون إن حضرت الملائكة غابت  
الشياطين، ربما ذلك كان السبب، فملائكة خالتي رضوى طردت كل شياطين  
ذاتي، فأخذت الوحوش التي كانت تصلب ذاتي بقسوة تنسحب إلى ججورها في  
أعماق ألمي، فذابت السياط التي كنت أجلدُ بها يقظتي، و انسابت على وجتي  
خطأً من الدموع، و أنا اقفز من سريري لأرتمي في حضنها باكيةً، بكيت كثيراً و  
هي تارةً تبكي معي و تارةً تقبل رأسي، جلستُ و اسندتُ رأسي إلى حجرها و  
أخذتُ تمسح على رأسي مداعبةً خصلات شعري القصير بأصابعها برقّة و

حنان، عدت بين يديها طفلةً صغيرة .. صغيرةً جداً، بريئةً جداً، نظيفةً جداً،  
تقلّصتُ مشاعري كلها حتى انحصرتُ في لهفة البحث عن كنوز الخالة رضوى  
... رفعت عيني إليها :

- "خالتي أريد شيئاً من الحلوى ."

ضحكتُ وقبّلتي من جبيني، وأخرجتُ من حقيبتها كيساً كبيراً مليئاً بالحلوى،  
جلستُ على سريري وأخذتُ أتناولها بنهم، ومع القطعة الأخيرة أحسست  
بالذنب، ناديتُ على أمل و منحتها لها، نظرتُ لي بقلق، فحضنتها بحب، و  
حضنتنا الخالة حضناً جماعياً وهي تهمس بأذني ..

- "أنتِ بخيرٍ يا حبيبتي، نحن معك الآن ، أنتِ بخير."

باتتُ خالتي رضوى عندنا في تلك الليلة، غرقتُ في بحر حكاياتها الخيالية،  
ما بين دليلة المحتالة و الشاطر حسن، و السندباد البحري و القمام  
السليمانية المسحورة، تقبّلتُ روعي النقاها الطفولية بسعادةٍ بالغة، و غرقتُ  
في عالم الأطفال الجميل، فوحوش الظلام مهما كبرت، ليس لها القدرة على ان  
تمسّ الطفلة القابعة بداخلي .

- "شكراً خالتي رضوى، أحبك كثيراً " تمتتُ بصوتٍ ناعس و هي ترفع  
الغطاء حتى رقبتي، قبل أن أغمض عيني و أغيب في سباتٍ طويل .

للأسف، لم يكن لخالتي سطوةً على عالم الأحلام، فبدأتُ أشباح الظلام  
تتغلغل فيه بقسوةٍ لتنهب ما كنتُ قد جمعتُ من راحةٍ و صفاء، حشود  
الرعب بدأتُ تتكدس على أبواب منامي، و ما كان لي إلا أن أراقبها بهلع،  
الصرخات المؤلمة، الضحكات الحيوانية، اللمسات المفززة، السلاح، الدم،

النجمتان الخضراوان تلاحقاني و أنا أهرب في كل مكان، لأرى أسواراً من أسلحةٍ تسدُّ كلَّ طرقاتي، أقع في هاويةٍ تسحبني نحو الغرفة الاسمنتية، لا! ليس مرةً أخرى! اغطي وجهي و أسلم نفسي للبكاء، مخالب كبيرةٌ تنغرس في لحمي بوحشية، أطلق صرخةً عالية، لكن ... عوضاً عن الصوت، تصدر عني رنةٌ هاتفي المحمول، و أراه واقفاً أمامي، يبعد الوحش الأسود الضخم الجاثم علي، تُقَطِّعه المخالب بوحشية، يفرق في دمه، أنظر إليه بخوف، فيشبح بعينيه الحزینتين عني و يعيد لي حقيبتی...

- "ما الذي جاء بك هنا؟! إبتعد! أهرب!"

- "لا أستطيع."

يردّ عليّ بألم، و يتهاوى أمامي على الأرض، لم اتوقع يوماً أن أتألم لرؤية موت شبيب ... حتى في أحلامي.

استيقظتُ بعد صراعٍ طويلٍ مع كوابيسي و أضغاث أحلامي، كانت قطراتُ العرق تتفصّد على جبتي، لقد كانت ليلةً طويلة. أشعة الشمس كانت قد أغرقت الغرفة، نظرتُ إلى ساعتی، لقد تأخرتُ كثيراً في نومي، تأملتُ الفراغ لبضعة دقائق، ثم أمسكتُ بالهاتف و نظرة عزمٍ تطلُّ من عيني، جيد، الشبكة ليست مقطوعة؛ طبعاً كنتُ قد حفظتُ رقمه عن ظهر قلب، أدخلتُ الرقم بسرعة، و ما هي إلّا ثوانٍ حتى وصلني صوته من الطرف الآخر في مزيجٍ من القلق و السعادة ..

- "سهام! أنتِ بخير؟"

- "نعم بخير، سمير، إسمع أريد شيئاً مهماً."

- "لك أن تأمريني فقط."
- "تذكرُ الشاب الذي اتصل بك من هاتفي؟"
- "تقصدين يوم الحادثة ؟ طبعاً أذكره لماذا تسألين؟"
- "أريد أن أقابله!"
- صمت لبضعة دقائق, لكنني كنت مصممة! كررتُ مرةً أخرى بعزم :
- "أريد أن أقابله."
- "سأحاول جهدي, لكن, ليس لديّ أيّ معلوماً عنه!"
- "تستطيع سؤال صديقك أبو ضبعو."
- "أبو ضبعو ليس ص...."
- أغلقتُ الهاتف قبل أن يتسنى له الرد عليّ, صوتٌ ضعيفٌ في قلبي هتف باحتجاج, لقد قسوتُ عليه كثيراً! تراقص على شفتيّ شبح شماتة, نعم أعلم ذلك, لكنه يستحق .
- خلال أقل من ساعةٍ رنّ جرس الهاتف, كان هو على الطرف الآخر, أبلغني بأن وجهتنا كانت حازراً في منطقة " حلب الجديدة "
- "اسمه جعفر, تم تعيينه مؤخراً, ألا زلتِ مصممةً على الذهاب ؟ "
- "نعم مصممة ."

- "اتصلت بوالدك و بلغته بأنك ستخرجين معي قليلاً، سأمرُّ عليك بعد نصف ساعة."

أقفل الهاتف قبل أن يستمع إلى ردي، لم يسلم حتى! كان صوته بارداً و المكالمة مقتضبةً جداً، لكنني كنت أعرف في قرارة نفسي أنني لم أتوقع حتى بأن يكلمني ثانيةً بعد الطريقة التي أنهيت فيها مكالمتي السابقة معه، لكنه اتصل! لست أدري، لكنه قرّر أن يساعدني مجدداً .

طردته من أفكاري بسرعة، و أخذت أفكر في ذلك الوجه النحيل، يسلمني حقيبي و يبتعد، أعاد لي حقيبي و بها محفظتي و نقودي كاملة! لكنه تجاهل نظرة التضرع في عيني و تركني لهم! هو شبيح مثلهم! نعم شبيح ...

ارتديت ثيابي و أنا أفكر بغضب، شبيح أنقذني! لا بد من أن هناك خطأ ما! و سأعرفه بمجرد وصولي إلى هناك .

بعد نصف ساعة كنا قد أخذنا طريقنا متجهين نحو " حلب الجديدة "، لم أستغرب زيادة عدد "الذبابات الجوية المزعجة" فهناك في أرض واسعة كان من المفترض لها أن تكون أساساً للسوق العربية المشتركة، بات مكان تزويد الطائرات بالمؤن، ذلك بعد الحصار الطويل على المطار العسكري للمدينة .

أخذتُ ألقب الاسم "جعفر" في ذهني و أنا أراقبُ مروحيةً بعيدةً تمرّ مسرعة، جعفر اسمٌ يستخدمه العلويون، أو ربما يكون شيعياً، مجرمٌ مثلهم و لا بد، لكن، لم اتصل بسمير؟ لم؟ .. لم؟!

كان سمير يسير إلى جانبي بصمت، عيناه السودوان تطوفان في الأفق البعيد كأنما يبحث عن أطراف حلْم هاربٍ أو كرامة ضائعة، نعم أسأتُ له

كثيراً، وربما جرحته ! ... " يستحق ذلك " حاولتُ أن أقنع نفسي باحتجاجٍ غاضبٍ " هو مثلهم، من جند بشار، هو مجرم! هو أيضاً مجرم !!" لكن روحي رفضت الاستماع للغوِ عقلي المضطرب، فرمت ترهاتي في واحات الصدى، فيما بدأت شجرة ندمٍ تنبت في داخلي، حاولتُ أن أغطي أوراقها تحت عباءةٍ من كرامةٍ وعناد، سرتُ إلى جانبه بصمتٍ يغطي على ضجيج الصراع المتأجج في داخلي ...

- "أرجوك لا تسيئي له! فلولا له لما ...."

تحدّث أخيراً، تحدّث ليعبرَ عن قلقه من ردود فعلي المجنونة، يظنُّ بأنّي ذاهبةٌ لأفتصَّ من الفتى الذي انقذني ! لعله على حق، لعلّي كنت أحاول أن أرفض فكرة أن يُنقذني شبيح، هل أنا بهذا الجحود؟! لم لا؟! وأنا من أساء له هو شخصياً بقسوة، بعدما أنقذني من برائتهم!! وللمرة الأولى ارتسمت في خيالي صورته و هو ينتشلي من عذابي، و يحملني بين ذراعيه الدافقتين، ليعيدني لحضن والدي و ابنتي ... نعم، كان هو من أعادني إلى أمل .

ملعونةٌ هي الدموع التي تخرج من مآقينا عنوةً لتفضح شعوراً طالما حاولنا إنكاره !

مسحتُ دمعتي بسرعةٍ قبل أن يلتفت لها، لكن صوتي كان هو من خاني و أنهى صراع ذاتي ..

- "أنا أسفة!" تمتمت بصوتٍ خفيض .

تابع سيره الصامت لبضعة دقائق كأنما لم يستمع لما قلت، وقبل أن أكرر أسفي توقف، ورفع لي عينين دامعتين، أحسستُ بيدٍ حديديةٍ باردة تعصر

قلبي بجنون، كان الأمر فوق طاقتي على الاحتمال، فعلى الرّغم من الدرب الذي خضناه سوياً، على الرغم من أماننا ومشاكلنا، على الرّغم من رغباتنا المكبوتة وأحلامنا المهترقة، وعلى الرغم من رحيله التراجيدي، إلا أنّها كانت المرة الأولى التي أرى فيها دموعاً في عينيه القويتين .

كان الأمر حقاً فوق طاقتي على الاحتمال ! ففاضت الدموع من عيني كأمطار ليلية شتائية عاصفة، رفع يده، ومسح دموعي بأطراف أصابعه برقة، قرأتُ في عينيه كلاماً كثيراً، أغمضتُ عيني، تسارعت نبضات قلبي، ربّت على رأسي برقةً وابتعد متابعاً مسيره، قال لي من خلف منكبيه العريضين ...

- "سهام لقد اقتربنا، لن يكون الأمر سهلاً!"

لملمتُ شتات نفسي وتظاهرتُ بالشجاعة ..

- "أعرف ذلك، لا تقلق ."

بضعة دقائق ولاح الحاجز من بعيد، كَشِبَاكِ عملاقة لعناكب متوحشة تنتظر بترقبٍ مرور أيّ فراشةٍ جميلةٍ ليقتنصوها ويمتصوا منها نسغ الحياة، ثم ليرموها بعد ذلك جسداً بلا روح، ارتعدت فرائضي وأنا أنظر لهم من بعيد، واقفين حول الحاجز بلا مبالاةٍ مزعجة، الوجوه اختلفت و لا شك، لكن الملامح كانت واحدة، لمجموعةٍ من الوحوش البشرية .

لم يكن هو بينهم، كان يجلس بعيداً على جانب الرصيف ممسكاً بجهازٍ محمولٍ قديم، تصدرُ عنه نغمات مَوَالٍ حليبيٍّ قديم تناهى إلى مسامعنا محملاًً بذكرياتٍ كثيرةٍ من أيامٍ بدت قريبةً جداً، بعيدةً جداً ... منعتُ دمعاً شريداً من التسلسل لعيني وأنا أكاد أتمايل على لحن الموال الهادئ ...

"يالأسمر اللون ... يالأسمراني .. تعبان يا قلب خيو و هواك رمانى... يابو  
عيون وساع... حطيت بقلبي وجاع ... بعطيك سبع رباغ خيو من عين رسماي  
... يا بوكمر فضة ... على إيش هالبغضة .. بعطيك لتترضى خيو من عين  
رسماي.."

واصلتُ النظر إليه فيما قامت ثياب سمير العسكرية بدورها ..

- "مساء الخير يا شباب، نوذُ لو نتكلم مع جعفر قليلاً."

نظرة غريبة متسائلة ارتسمت على وجه أحدهم، ردّ عليها سمير بكلام كثير  
لم أعبأ بأن أسمعهم، لم أرفع ناظري عنه فيما كان الثاني يناديه، تشنّج عند  
سماع صوته، خبأ جهازه في جيبه و نهض بتوتر، نظرتُ نظرة سريعة، أدركتُ  
بأنه تعرّف عليّ فوراً، وأقبل بخطى مترددة، دققتُ أكثر في ملامحه لأدرك حينها  
لَمْ توسّلت إليه عيني طلباً للمساعدة، بوجهه النحيل و عينيه الواسعتين  
الزرقاوين، الشعر الأجد بلون رمال باديتنا الشّماء، التقاطيع البيزنطية  
البارزة التي تدل على انتمائه لقرى الشمال السوري، نعم كان من قاطني  
أرياف حلب، لا شكّ في ذلك، لكن الأهمّ في كل ما رأيت كان الملامح الطفولية و  
الطيبة التي تطلّ من عينيه رغماً عن أنفه، كنتُ محتاجةً لأن أذكر نفسي مراراً  
و تكراراً بأنني أنظر إلى شبيح، يساعدي في مهمتي بنطاله العسكري و السلاح  
المعلّق إلى قميصه القطني الأسود، الذي طرّزتُ عليه يدٌ خيرة علم الأسد ذو  
النجمتين الخضراوين ..

واصلتُ نظراتي إليه فيما بادره سمير:

- "جعفر، السيدة سهام توذُ لو تتحدث إليك قليلاً."

هزَّ رأسه بهدوءٍ و الشحوب يكسو بشرته الحنطية، فيما تقدمنا إلى مكانٍ بعيدٍ عن الحاجز، اصطفت عليه بضعة مقاعد بلاستيكية إلى جانب نرجيلةٍ زجاجيةٍ رخيصة، و طاولةٍ عليها بضعة كؤوسٍ فيها بقايا عشبة المتة.

جلستُ أنا و سمير فيما ظلَّ هو واقفاً، بادرنا بالقول و عيناه مثبتتان على الأرض في تردد :

- "أسف يا سيدتي، جهازك المحمول لم يعد لديّ، لقد اضطررت لبيعه."

فتحتُ فمي لأردّ عليه لكنه تابع بسرعةٍ و توتر:

- "كان لا بد لي من أن أعطيهم نصيحتهم من ثمنه، كان عليّ بيعه أنا أسفٌ جداً .. و..."

نهض سمير و اقترب منه واضعاً يده على كتفه، جفل الفتى من اليد الكبيرة على كتفه، كان يبدو كمن يتعرض للإساءة بصورةٍ مستمرة، لكن سميراً ابتسم له مشجعاً مهذباً و قاده نحو كرسيّ ليجلس عليه ..

- "لا أظن سهام قطعت كل هذه الطريق من أجل جهازٍ محمول."

ثم نظرت لي، تململتُ في مكاني و هززت رأسي موافقةً على كلامه، جلس سميرٌ بدوره و أخذ الاثنان ينظران لي ليستمعا لما لدي؛ بدى الأمر صعباً، لم أتمكن من الكلام و أنا أحسُّ بنظراتهما المترقبة تخترق جمجمتي و تمسّط أفكاري، بلغتُ ربقي بصعوبة، نظرتُ لأظافري و ..

- "لماذا ؟ لماذا اتصلت به ؟" و أشرت برأسي نحو سمير.

بدت الدهشة على ملامحه ورد بتلقائية ..

- "أنت حُرمة ! ولا يسعني أن أتركهم يسيؤون لحرمة !" أطرق قليلا ثم تابع: " آسفٌ لأنني لم أتمكن من إنقاذك بنفسي, لم أتمكن من الوقوف بوجههم, أنا آسفٌ بحق, الاتصال بأقربائك كان أقصى ما أستطيع فعله ."

نظرتُ له نظرةً حائرةً و آلاف الأفكار تموجُ في رأسي دونما طريقةٍ لصياغتها, أردتُ أن أترجم تخبُّطها في كلمات, لكنني فشلت.

هو فعلاً أراد إنقاذي ! هو ! الشبيح, المجرم, خادم النظام السادي ! انقذني أنا ! ولماذا ؟!! لأنني حرمة ! أيّ حرمةٍ هذه ولا حرمةٍ لبشرٍ ولا دينٍ ولا عرضٍ لديهم ؟! كيف ؟ ولماذا ؟!!!

نظرت لسميرٍ أستجد به, قرأتُ في عينيه أنه يفهم فوضى أفكاري, هزَّ رأسه بتفهم وقال لجعفر .

- " تريدُ أن تسألك ما الذي دفعك لتكون هنا ؟"

- " هنا ... تقصد مع كتائب الأسد ؟ "

- " شبيبيبيبيح .. انفجرت الكلمة من بين شفاهي بتهوّر, عضضتُ على شفتي وأنا أرى أثرها على عينيه الواسعتين..

- " ليس الأمر سهلاً, لديّ أمٌ أعود لها ... ليس الأمر سهلاً... "

فاز الدم في عروقي, احمرَّ وجهي وأنا أهتف بغضب

- "لديك أم تعود لها !! إذاً حرّيتك بك أن تبتعد عن هذا المكان، عن الدم والظلم والقتل، ألا تخشى أن يحل بها ما تفعلونه بالناس؟! لديك أمّ لذا عليك أن تحسّ بشعور من يفقد أمه، وأهله، ما الذي جاء بك هنا؟! لماذا تتحول إلى وحش! أنت لست وحشاً! لماذا تصبح شبيحاً؟!!"

أطرق رأسه في صمت، لكنني تابعتُ محاولةً أن أصل بصوتي لأعماقه، لستُ أدري ما الذي دهاه، لماذا يقرّر شخصٌ مثله أن يصبح سفاحاً؟! أحسستُ أنني أمام قضيةٍ أرفض أن أخسرها!

- "رأيتك البارحة في كابوس ... كان ... كان أبو ضبعو يلاحقني، وأنت تقدمت لحمايتي، وحين كالت لك الضربات سألتك لم لا تهرب، فأجبتني بأنك لا تستطيع، وسقطت على الأرض جثةً هامدة!"

- "لأنني فعلاً لا أستطيع."

ردّ عليّ بضعف، لكنني رفضتُ أن أستمع، تابعتُ بحماسٍ وقوة:

- "هذا ليس بالطريق المناسب! إن كنت تود العودة لوالدتك، ليس هذا طريق من هم مثلك، إنه طريق المجرمين أمثالهم" أشرتُ براسي للواقفين على الحاجز، ونظراتهم القذرة تلتهمني، نظرةً من سمير لهم جعلتهم يشيخون بأنظارهم ويفرقون في أحاديث هامسة، عدت بناظري إلى جعفر و تابعت:

- "أنت لست سفاحاً! جئتُ خصيصاً لأجل أن أقول لك هذا."

غرق أكثر في صمته وانكمش على نفسه، نظرتُ لسمير و تابعت مجدداً:

- "نستطيع أن نساعدك, نستطيع أن نجد لك عملاً شريفاً لتعيش منه أنت ووالدتك, نستطيع أن نساعدك لتخرج من هنا!"

نظر لي سميحاً نظرةً طويلة, لم أتمكن من فهمها, ثم نظر لجعفر نظرة تأكيد, تمتم جعفر بصوتٍ خافت ..

- "ليتني أستطيع, ليتني!"

- "لم لا؟!"

- "هي تريد ذلك."

- "من هي؟"

- "أمي!"

جاء الرُّدُّ قاسياً بارداً, يحمل بين جنباته حكايةً طويلة, في حين ثبَّتَ عينيه على بقعةٍ في الأرض و غرق مجدداً في الصمت, لكنني لم أكن لأسمح له بالتوقف عند هذا الحد...

- "أمك؟"

- "نعم أمي, أمي كان من طلب أن أنتسب للكتائب, بل و سعتُ شخصياً لذلك بوساطة حفنةٍ من المعارف الذين "خدموني" و ساعدوا على استلامي للمهام بسرعة." كانت الكلمات تتدفق منه بهدوءٍ جليدي, كان هدوءاً مصطنعاً صاغه بإرادةٍ حديديةٍ ليغطي على البراكين الثائرة بداخله, كم هو قاسي زمن الحرب .

- "لأجل النقود!" تمتمتُ بصوتٍ لا يكاد يُسمع..

انتفض في جلسته وردّ بسرعة:

- "طبعاً لا! ليس لأجل النقود! فأنا صاحب صنعةٍ كانت لتدرّ علي عشرات الألوّف في وقتٍ كهذا."

- "لماذا إذاً؟"

- "للثأر."

كانت آخر إجابةٍ أتوقعها، الأبسط و الأكثر منطقية، ما الذي يدفع أماً لترمي فلذة كبدها في أتون الحرب بين المجرمين و المعتصين؟ في ثقافتنا الشرقيّة المثقلة بالعلل، دوماً ما تسمع الكثير من هذه القصص الدموية ... طبعاً! الثأر

تململ جعفر في جلسته و نظر لرفاقه الواقفين بعيداً ..

- "يجب أن ..."

- "الثأر لمن؟" قاطعته بسرعة ...

كنتُ أعلم بأنه يحاول التملّص بعد أن لمستُ أكثر زوايا نفسه المأ و حساسية، لكن نظرةً منه لعيني جعلته يدرك إصراري و بأنني لن أتركه يرحل حتى أسمع القصة كاملةً.

زفر زفرةً طويلةً وردّ بنبرةٍ حزينةٍ هادئة:

- "الثأر لأخي علي، أخي كان أكبر مني بسنة، ما أن انتهى من دراسته الثانوية حتى بدأت الحرب، وفي منطقةٍ مثل منطقتنا وقبل دخول حلب في خضمّ المعركة كنا قد غرقنا في جوٍّ من التوتر العام، نقص المحروقات، الطعام، الماء، وكل شيء، كانت حرباً باردةً على الجميع، ثلّة من المرتزقة كانوا قد بدأوا يندسون في مظاهراتٍ بإسم الثورة، وفي خلال المظاهرات يتم تصفية الكثير من الحسابات الشخصية في القرية تحت رايات الحرية .."

قاطعته بنبرةٍ غاضبة :

- "الثورة ليست ..."

- "أعلم يا سيدتي، أعلم، الثورة قامت ضد نظامٍ كان قد أرهقنا أكثر مما أرهقكم، لكن لكل ثورةٍ متسلقين، وقد فاق عدد المتسلقين على الثورة عدد الثوار، خصوصاً عندما اختار الثوار الهرب و اللجوء إلى تركيا، الأردن، و حتى لبنان؛ عندما قرروا أن يصبحوا نشطاء من الخارج."

- "أنا لازلت هنا!"

- "وكم تصادفين ممن هم مثلك؟"

كان سؤالاً صعباً، أسكتني لبضعة دقائق، و عندما هممتُ بالاعتراض كان سميّر قد سبقني ..

- "قلت بأنك تثأر لعلي؟"

- نعم، علي، عندما أنهى دراسته الثانوية كان محتوماً عليه أن يلتحق بالخدمة العسكرية، كان بإمكان أُمي أن تساعد على السفر أو حتى أن ترتب

له مكاناً آمناً ليخدم فيه، على الأقل حتى تستقر الأوضاع قليلاً - على حد تعبيرها- لكنه رفض، قال بأنه رجل، وبأن عليه الدفاع عن بلده ."

صمت قليلاً ثم نظر بطرف عينه إلى سمير..

- "أنت تعلم يا سيدي، من هم مثلك في الجيش روحهم مصونة، أما من هم مثلنا، فيتم رميهم حطباً للحرب."

تهمد بعمقٍ و أغلق عينيه كأنما ليستجمع أفكاره و ذكرياته اعتدل في جلسته و أكمل:

- "بدأ رفاقه بالتساقط من حوله الواحد تلو الآخر و مع كل واحدٍ منهم كانت لهجته تزداد شدةً، كانت الكراهية و الغضب يتأججان بعنفٍ أكثر و أكثر في داخله، حتى تمكنوا من تحويله إلى آلة تدمير، كنتُ أحاول ان أناقشه في محادثاتنا القليلة، لكن الردّ كان دوماً يأتي عنيفاً غاضباً هائجاً، كان ما يوقفني كل مرةً نظرةً في عيون أمي، كان ابنها... نعم كان ابنها، كان عليها أن تدافع عنه."

- "تدافع عنه منك ؟ و أنت ألسّت ابنها؟"

- "أنا؟! "أخذ ينفذ غباراً غير مرئيٍّ عن بنطاله في حركةٍ متوترةٍ "عليّ كان ابنها، و بكرها، و حبيبها، و أملها في الدنيا ... أما أنا، فكنت ابنها "أيضاً" و عندما استشهد علي، استشهدت معه هذه الـ "أيضاً" فسقطت معها "ابنها" سهواً."

كانت كل عضلة في وجهه تنطق بالألم والمعاناة، شابٌ في عمر الضحكات الخجلة والنظرات المختلصة إلى ابنة الجيران، شابٌ كان له أن يتحسّر فقط على علاماتٍ ضائعة في امتحان، تسريحة شعرٍ فاشلة، حبّ زميلةٍ له على أقصى تقدير، لا أن يتحسّر على حبّ أمه ! كان شاباً، في زمن الحرب، ملعوناً هي الحرب .

قطع سلسلة أفكاري مسترسلاً بصوتٍ هادئٍ قادم من أعماق شروده ..

- "لا ألومها، لا يسعني أن ألومها، حتى أنا لا زلت حتى اليوم أسير كوابيسٍ ليليةٍ أرى فيها جثته، أرى فيها وجهه، سلّمونا جثته بعد ثلاث شهورٍ من اختفائه، كانت متفحمةً تماماً ... اما وجهه ... "

صمتَ قليلاً ليتمكن من السيطرة على صوته المتهدّج، بلع ريقه و معه الكثير من الدموع ...

- "ملاح وجهه، نظرة الرعب عليها ... أنبأتنا بأنه احترق حياً، قالوا بأنه استشهد في كمينٍ نصبته إحدى العصابات المسلّحة للحافلة التي كانت تقلّهم لإحدى مهامهم، ١٦ قضوا يومها، و أخي كان أحدهم؛ بعد العزاء و الدفن، حبست أمي نفسها في غرفتها لمدة أربعة أيام، و خرجت في اليوم الخامس مباشرةً نحو الهاتف، بشعرٍ هائشي و عينيّن حمراوين و صوتٍ قاسي، قامت بالكثير من الاتصالات، ثم أبلغتني بأن عليّ أن أذهب و أستلم سلاحِي و مهامِي، و قبل أن أسالها، أمسكتُ يدي و نظرت لي بعينيّن مليئتين بالدموع، و قالت لي بأن عليّ أن أثار لها، بأن عليّ أن اقتلهم جميعاً، من قتلوا أخي، من يقتلون بلدنا، من يريدون إسقاط رئيسنا، المجرمون و العملاء ... كانت كلُّ حوارات و نقاشات أخي، بما فيها عباراته المكرّرة الملقّنة، كانت كلها قد انتقلت

إليها، أما الحقد و الكراهية فقد تضاعفت عشرات المرات، بل ألوف المرات، في ذلك اليوم، وقفت لأول مرة على حاجز ."

- "لكن أخاك كان متجهاً لقتل أبرياء! ... أخوك كان .."

- "مجرماً؟ قاتلاً؟ من منا ليس كذلك؟ أليس بائع الخبز قاتلاً؟ أليس بائع الطعام قاتلاً؟ ماذا عن بائعي المحروقات؟ تعتقدنيهم أبرياء؟ من منا ليس قاتلاً؟! من منا ليس مجرماً في هذه الحرب؟!"

كانت المارة تقطر من صوته فيما تقلصت أصابعه على ركبته بعنف، هممتُ بأن أقول شيئاً لكن سمير وضع يده على يدي ونظري، عيناه تذكراني "لا تقسي عليه" أطرقت رأسي و ابتلعتُ آلاف الكلمات و الأفكار، و بقي سؤالٌ واحدٌ لأسأله ..

- "لماذا إذأ! لماذا أنقذتني؟"

- "الاعتصاب، السرقة، التهب، ليس هذا ما جئت لأجله" حوّل ناظره نحوي و تابع: "قلتُ لك، أنتِ حرمة، و أبو ضبعو، الكلُّ يعرفه، وحشٌ ساديٌّ مريض، الكثير منهم كذلك، أكثرهم كذلك .."

وضع مرفقيه على ركبتيه، منغلقاً على نفسه كأنما ليحجب نفسه عن مخاوف ترتسم في خياله ..

- "أنا هنا من أجل أمي، أنا هنا من أجل أخي."

- "إذأ عليك أن تخبرها، يجب أن تقول لها بأن الشبيحة مجرمون، عليك بأن تقنعها بأن هذا الطريق خاطئٌ و خطير."

هزّ رأسه نفيماً ..

- "تريد ثار أخي لا يهمها أي شيءٍ آخر، هي تريد ثار أخي ... أحياناً ... أحسُّ بأنّي أنا أيضاً أريده."

- "ولكن هكذا، ستصبح أنت أيضاً ..."

بريقٌ غريبٌ في عينيه رافق عقدةً بين حاجبيه ظهرت وهو ينظر للحاجز، فيما لاحت بعيداً فتاةً شابةً تقترب من الحاجز وسط ضحكات الشبيحة الواقفين عليه، قام من على كرسيه بسرعة .

- "أسفٌ لأنني لم أتمكن من ردّ جهازك المحمول، كان عليّ بيعه."

مشى متجهماً نحو الحاجز، أرسلت له سؤالاً الأخير وهو يبتعد عنا بسرعة:

- "أنت شيوعي؟"

استدار على عقبيه، نظرتي باستغرابٍ ثم ابتسم وردّ بحكمة

- "أنا مسلم."

أحسستُ بوجنتاي تشتعلان خجلاً، فيما استدار جعفر وأكمل طريقه نحو الحاجز، بضعة كلماتٍ وضحكاتٍ ثم أشار لنا، استقبل بعدها بعض اللكزات القويّة، مرّت الفتاة بأمان ...

نهض سميرٌو نظرتي نظرةً طويلةً مليئةً بالمعاني، ثم مدّ يده لي ..

- "سأعيدك الآن إلى المنزل."

أوماتُ برأسي موافقةً وأنا أسلمتهُ يدي، نهضتُ بهدوءٍ وكلمةً واحدةً تتردّد في ذهني "اللون الرمادي ."

لم يتغير الكثير في الروضة أثناء غيابي، في الواقع كان " سعد " هو التغيير الوحيد؛ طفلاً هادئاً بشعرٍ بنيٍّ أجعد، و عينيْن لوزيتين تسكن فيهما نظرة جديةٌ لا تناسب وجهه الطفولي، و كعادة الأطفال الجدد، كان يعاني من أعراض " الأيام الأولى للمدرسة " متمثلةً في بكاءٍ متواصل ورفضٍ لأيِّ نوعٍ من أنواع التواصل، مع الإصرار على الاستنجاد بماما طالباً العودة لها و للمنزل .

أمسكْتُ بيده الصغيرة و اتجهنا نحو غرفة المعلمات، بدأتُ بالمغريات المادية، من حلوياتٍ و هدايا، غالباً ما كانت هذه الرشاوي تفشل مع الأطفال، لكنهما كانت مدخلاً نحو هوايتي المفضلة، استكشاف الطفل و البحث العنيد عن مفتاحٍ لكسب ثقته، و بعد عدة محاولاتٍ فاشلة ..

- " ما اسمك ؟ "

واصل النظر نحو الباب كتعبيرٍ عن رغبته بالهرب، لكن يده كانت قد بدأت تستكين في يدي، الآن هو الوقت المناسب ..

- " لا بد من أن اسمك أحمد! "

ردّ عليّ بنظرة احتقارٍ غَشَّت العينيْن البنيتيْن الغاضبتين ..

- " زامي ؟ ... سامي ! .. هاني ... رامز .. حامد .. كمال .. جمال .. "

بدأت النظرة الغاضبة تختفي و يحلُّ محلُّها نظرة استمتاعٍ جميلة

- " جميل .. سمير .. هدير؟ .. سامح ! .. لا بد من أن اسمك سامح ! "

هَزَّ بِرَأْسِهِ نَافِيًا

- "ليس سامح همممممم .. ساعدني إِذَا، أنا فاشلةٌ في التخمين، ما اسمك؟"

حرَّك شَفَاهَهُ لِيَرِدَ، ثُمَّ ضَمَمَهُمَا بِسُرْعَةٍ مَتَرَاجِعًا عَنِ الْفَخِّ الَّذِي كَادَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، ابْتَلَعَتْ ضَحْكَةً ضَخْمَةً كَادَتْ تُفْلِتُ مِنِّي، يَالَهُ مِنْ طِفْلِ ذَكِي..

- "حسام .. وسام .. عبد الله .."

بَاتَ كُلُّ اسْمٍ يُتَّبَعُ بِ ( تَوْ ) نَافِيَةً لِلْإِسْمِ فِيمَا بَدَأَتْ بِسَمَةِ مَآكِرَةً تَرْتَسِمُ عَلَى زَاوِيَةِ فَمِهِ

- "عبد الرحمن .. عبد السميع .. عبد الرازق .. عبد المنعم .. حسن .. حسين .. سعيييييييد"

شَجَعْتَنِي ضَحْكَتَهُ عَلَى مَوَاصِلَةِ اللَّعْبَةِ

- "سلوى .. رنيم .. سعاد؟"

مَعَ اسْتِخْدَامِ أَسْمَاءِ الْفَتَيَاتِ أَخَذَ يَضْحَكُ بِشِدَّةٍ، عَرَفْتُ بِأَنْنِي قَدْ كَسَبْتُ الْمَعْرَكَةَ، حَضْنَتَهُ وَ أَكَّدْتُ لَهُ بِأَنْ مَامَا سَتَعُودُ لَتَأْخُذَهُ، نَظْرَةً حَائِرَةً هَامَتْ فِي عَيْنَيْهِ، لَكِنِّي كُنْتُ قَدْ سَبِقُ وَ فَتَحْتُ السَّبِيلَ إِلَى قَلْبِهِ الصَّغِيرِ، أَخَذْتُ بِيَدِهِ وَ جُلْتُ مَعَهُ فِي رِحْلَةٍ حَوْلِ الرُّوَضَةِ، تَوَقَّفْتُ أَمَامَ بَابِ صَفْنَا وَ هَمَسْتُ فِي أُذُنِهِ ..

- "اسمك سعد."

هزَّ برأسه و ابتسم، المحطة التالية كانت مقعده فيما وقفت أنا عند السبورة  
لأواجه العيون البريئة و البسمات اللطيفة

- "أين كنتِ؟"

- "إشتقنا لك!"

- "لماذا لم تاتي إلى الصف؟"

تناثرت عليّ أسئلتهم، قلتُ لهم بأنني كنت مريضةً لأنني لا أنام مبكراً و لا  
أشرب الحليب، و قد تعلمتُ درساً لن أنساه، ثم شكرنا المعلمة المساعدة على  
رعايتها لهم و أرسل لها الجميع قبلاّت طائرة

- "الآن من منكم ازداد طوله و أنا مريضة؟"

ارتفعت الأيادي الصغيرة تتنافس ببراءةٍ على منصب "الأكثر طولاً"، بعد  
الحصص الصباحية حلّ وقت الفسحة، أخرج كل طفلٍ وجبته لينطلق في  
حديقة المدرسة مجدداً نشاطه لإكمال يومه الدراسي، بدأتُ بترتيب المقاعد  
حين لاحظتُ سعيداً جالساً على مقعده رافضاً مغادرته، ابتسمتُ بحنان، كان  
يرفض تناول وجبته في محاولةٍ أخيرةٍ لرفض انفصاله عن والدته، فهي  
المسؤولة عن طعامه، حاولتُ أن أقنعه بهدوء، اشتدّت قبضة أصابعه  
الصغيرة على مقعده و توتر فكّه الصغير، أدركتُ تصميمه على البقاء جائعاً  
بانظار ماما، فمنحته قبله على وجنته، و منحته مساحةً من الحرية سامحةً  
له بالبقاء في الصف، و كتبت ملاحظةً لوالدته، لم يكن الأمر خارجاً عن نطاق  
المألوف، هو غالباً أمرٌ غريزيٌّ يربط الطعام بماما، غادرتُ الصف و أنا احسب  
بأن الأمر سينتهي عند ذلك؛ لكن ما حدث في الأيام التالية كان خارج المألوف،





- "كنا نسكن في حيّ الإذاعة ."

الإذاعة ... مركز أعنف المعارك و أقدمها في مدينة حلب, حتى أصبح اسم المنطقة لوحده كفيلاً بإصابتك بقشعريرة باردة, فالمعركة هناك كانت حامية الوطيس للسيطرة على أعلى بقعةٍ في المدينة..

- "أرجوكِ ساعدينا!"

لا شيء في الدنيا أشدُّ ألماً من حسرة أمٍّ على فلذة كبدها, لقد خسرت هذه الأم ابتسامة طفلها الوحيد! نعم, هي الحرب, ترسم المزيد و المزيد من مآسيها على خريطة حياتنا اليومية, و علينا أن نتجاهلها و نغيّر خطّ سيرنا ببساطة, علينا أن نرسم ضحكةً مزيفةً على شفاهنا منتظرين اليوم الجديد, و تبقى المعادلة الصعبة, كيف نعلّم الأطفال مهارة تجاهل الألم و الحزن؟ كيف نطلب منهم أن يزيّفوا واقع حياتهم؟ كيف نعلّمهم معاني الفراق و الخسارة و استمرار الحياة من بعدهما؟ كيف لنا أن نفسّر لهم كل هذا الدمار؟ كيف لنا أن نفسّر لهم كل هذه الدماء؟ و أخيراً و ليس آخراً ... كيف لنا أن نبعد عنهم أيدي الخوف البغيضة, إذا كنا نحن لم نتمكن من الهرب منها بعد؟! ..

رَنَاتٌ على هاتفِي المحمول انتشلتني من أفكاري, عرفتُ المتصل قبل أن أنظر للهاتف.. رَبَّتْ على كتف أم سعد, و وعدتها بأن أبذل كل ما في استطاعتي لنعيد سوياً لسعدٍ طمأنينته و توازنه, حملتُ حقيبتها و رحلتُ, نظرتُ إلى سجلّ المكالمات الفائتة, فظهر رقمه على الشاشة الصغيرة, لقد وصل سمير ليرافقنا إلى المنزل كعادته في الأونة الأخيرة .

( ٤ )

رافقتُ أمل و خرجتُ من المدرسة، ولم أتمكن من منع الابتسامة التي  
أطلت على وجهي عندما رأيته واقفاً على الباب، استسلمتُ للشعور اللذيذ،  
فقد توقفتُ مؤخراً عن لوم قلبي و بدأتُ أسمع لنفسي بالاعتیاد على وجوده  
في حياتي، في حين اضمحلت أشباح الماضي في حضور أحاديث الحاضر و  
بضعة لمحات توحى بشيءٍ من مستقبل؛ حتى أمل باتت معتادةً على وجوده،  
حتى أنها اختارت له إسماً خاصاً بها متجاهلة كل احتجاجاتي ومحاولاتي لهنها  
عن استخدامه ...

- "سيميم، أنت شرير؟"

إختصرتُ كل الأسئلة و الأفكار ببراءةٍ طفوليةٍ بحتة، إلتفتُ إليه لأسمع إجابته،  
ففي سؤالها قبعَتُ أسئلةً كثيرةً طالما وددتُ لو أسألها، انحنى نحوها و هو  
يرسم ابتسامةً رقيقةً على وجهه ثم سألها و عيناه الساحرتان تغرقان في  
عينها الخلابتين:

- "ما رأيك انتِ؟"

عقدتُ حاجبها علامةً على التفكير، ثم هزت رأسها و الجديّة تكسو وجهها  
الصغير:

- "لا أظن .. صمتتُ قليلاً ثم استأنفت " لماذا إذاً تعمل مع الأشرار؟  
"قالت ذلك و هي تلمس بذلته العسكرية" لماذا تلبس مثلهم؟"

حملها على ذراعه و تابع السير, كان ينظر لها مانحاً إياها كل اهتمامه و تركيزه, لكم تمنيتُ لو أكون طفلةً على ذراعه ..

- "أمل, من هم الأشرار؟"

جاء جوابها بعد دقائق من التفكير العميق :

- "هم من يؤذون الناس و يسببون الانفجارات ."

- "و هل أسببُ أنا أية انفجاراتٍ أو أوذي أناساً؟"

- "لا أظن."

أحسستُ باستسلام أمل لنظرته العميقة, فقفزتُ إلى أرض الحوار, فأسئلتني لا زالت تحتاج لإجابات, لم أكن مستعدةً للتخلي عن فرصتي في الحصول عليها .

- "تعرف جيداً ما تقصده, تريد أن تسألك, لماذا أنت مع جند الأسد ."

- "أنا لست مع جند الأسد يا سهام! أنا مع جند سوريا."

- "الأمر سيان."

- "إذاً تقولين بأن سوريا, هي سوريا الأسد؟"

- "لا طبعاً! .. أعني .. ..."

تاهت الكلمات مني, زفرتُ باستسلامٍ و حرّكت يديّ بعصبية

- "المهم، لماذا أنتَ معهم؟"

- "سبق وقلت لك، الأمر كان محض صدفة، الغالبية العظمى ممن هم في الجيش ما هم إلا مواطنون سوريون يؤدون خدمتهم العسكرية، و شاء لهم القدر أن يؤدوها في هذا الوقت بالذات."

- "ولماذا لا تنشقون عنهم؟"

- "الانشقاق يعني الانضمام للجيش الحر."

هزرت رأسي بسرعة في موافقة متحمسة، أغرقني بنظراتٍ سبرت عيناى بعمقٍ متسللةً إلى أعماق أعماقي، ثم أبعد نظراته وشرد في الأفق البعيد ..

- "وإذا لم يعجبني ما يقوم به الجيش الحر؟"

- "كيف لا يعجبك! هم من يحررون البلد، هم من ينقذون الناس!"

- "قلتُ لك مسبقاً، بأن رقعة المساحة الرمادية باتت تتسع أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، و اللون الابيض يكاد يختفي، لم يتبقَ منه إلا القليل في قلبك ... عاد بنظرته إلى أمل و لثمها من خدها بحبٍ و هو يستأنف " و قلبها ."

- "لكنك كنت لتخدم البلد!"

- "سهام نحن لسنا إلا رماداً لحربٍ أكبر منا جميعاً، و من يودُ أن يساعد البلد و الناس بحقٍ سيقوم بذلك مهما كان موقعه أو انتماؤه، ظننتُ جعفرأ علمك ذلك الدرس!"

هربت من نظرة عميقة أخرى من نظراته، فيما سحبتُ منه أمل فقد  
وصلنا إلى المنزل ..

- "لستُ أنا من سأل، أمل كانت تسأل."

ضحكة قصيرة هربت منه وهو يراقب اختبائي خلف ابنتي، هربتُ من احمرار  
وجنتي بسرعة ..

- "تريدُ أن تصعد لتشرب فنجاناً من القهوة؟"

- "سمسم أرجوك تعال معنا! سأريك واجبي، المعلمة قالت بأنني  
شاطرة جداً، وبأن خطي أحسن خطٍ في الصف"  
رَبَّتْ على رأسها بحب ..

- "أعذريني يا حبيبتي، ربما في مرةٍ أخرى."

تململ قلبي في مكانه، كان يودّ لو يقفز ويتعلق بكمّته كما فعلت أمل،  
مطالباً بالمزيد من لحظات السعادة المسروقة معه .

ربما يجيد سميئاً قراءة الأفكار، أو لعل قلبي أطلّ من عيني و هتف بما  
رفض لساني أن يبوح به كبرياءً وكبراً

- "مشغولة أنتِ عصر اليوم؟"

- "لا أبدأً."

ابتسم بسمّة تأوّهت روجي لوقعها ..

- "سأمرُّ عليك في حوالي الساعة الرابعة والنصف, لديك مانع؟"

- "لا سأكون جاهزة ."

ودَعْتُهُ و صعدتُ إلى المنزل و قلبي يخفق بشدة, كمراهقةٍ حدَدْتُ للتو أول موعدٍ عاطفيٍّ لها, كانت دقات قلبي تتسابق مع الأفكار و الاستنتاجات, فيما انهمرت الأسئلة بغزارةٍ في داخلي شلالاً من بهجةٍ و ترقبٍ, كانت السعادة تتدفق مني على صورة أغانٍ أخذتُ أذندن بها و أنا أحضِرُ طعام الغداء, شاركتني أمل غنائي و سعادتي, غمرتني البهجة كلياً حتى أنني لم اسمع صوت انفجارٍ واحدٍ تلك الظهيرة, لست أدري إن كانت المدافع قد أخذت إجازةً قصيرة, أم أنني كنت أشدُّ سعادةً من أن الأحظ أية غيمةٍ في سماء فرحتي المشرقة .

أبي عاد مبكراً اليوم إلى المنزل, كان سميرٌ قد أبلغه بموعدنا, و حينما قمنا لتبديل ثيابنا أنا و أمل استعداداً للذهاب, استوقف أمل قائلاً:

- "ماما ستذهب وحدها يا أمل."

برمت شفتيها بامتعاضٍ طفوليٍّ مشاكس

- "لكنني أريد أن أذهب أنا أيضاً!"

- "لا يا عزيزتي سنبقى سوياً أنا و انت."

ضممت ذراعها أمام صدرها بغضبٍ مستعدةً لجولةٍ من النقاش و الاحتجاج, و قبل أن أعترض على القرار, نظر إليهما ضاحكاً ضحكةً خبيثة ..



بادرتني حلوتي بمجرد خروجي من الغرفة و أخذت تدور حولي بسعادة، فقد كنت قد حكمت على أنوثتي و أناقتي بالسجن المؤبد منذ زمنٍ مضى، استمتعتُ بفرحتها بي فيما كساني شيءٍ من الزهو كوني لا زلت أحتفظ بشيءٍ من السحر .

وصل سمير في مواعده تماماً، كنتُ قد تمنيتُ و أنا مع أمل لو يمطرني بعبارات الإعجاب كما فعلت صغيرتي، لكن عيناه تولتا المهمة على أكمل وجه، فقلتا ما قالته أمل و أشياءً أخرى لا تقدر أمل أن تقولها، أما هو فكان يرتدي قميصاً أسوداً زاد من سحر عينيه الجذابتين، و بنظراً عصرياً أنيقاً فيما صفف شعره باستهتارٍ وفوضى محببة، كاد قلبي يذوب و أنا أتأمله، و حمدت ربي على أني لم اکتف ببنطالي القديم، منحني باقةً من الورد الحمراء زادت من احمرار وجنتي، تقبلتها بسعادةٍ فأنا أعشق الورد، أسندتُ يدي إلى ذراعه و نحن نتجه إلى أحد المطاعم القليلة التي كانت لا تزال تحافظ على أبوابها مفتوحةً بعنيدٍ لا يتماشى و ظروف الحرب .

أو لعلِّي كنتُ أهولُ الأمور؟

فقد فاجأني كُفُّ الناس الموجودين في المطعم الذي توقعت أن أراه مهجوراً ! يبدو أن الحرب لم تتمكن من قهر إرادة شعب حلب و تصميمهم على أن يعيشوا لذة الحياة على الرغم من كل شيء؛

كان المطعم يغرق في الموسيقى الهادئة الحاملة فيما تناثرت الأحاديث بكافة أنواعها على الطاولات، و دغدغت رائحة دخان المعسل الكثير من ذكرياتي .

جلستُ مهدوءٍ و أنا أعي نظراته المسلّطة عليّ، بدأ الخجل يتسرّب إلى ذاتي المشرّبة بالقلق و التوتر، أخذتُ أصابعي تلهو ببتلات الورد الحمراء فيما هربت نظراتي بعيداً، و مارس قلبي مهمة سرقة أنفاسي من صدري، أحسستُ بالدم يغلي في وجنتي و أذني ..

تبّاً! ما هذه الحالة المراهقة و كيف أخرج منها ! كنت كمن يغرق في بحرٍ من الرمال المتحركة، كلما حاولت مقاومة فيض مشاعري و توتري زادت نبضات قلبي و احمرار وجهي ! بل و زاد الموضوع سوءاً الصمتُ الكثيف الذي أغرقني به، تمكنتُ بعد عدة محاولاتٍ من رفع عيني نحوه لاستكشاف سبب صمته ذلك، لأفاجأ بعينه تراقبان توتري باستمتاع، أغاظتني البسمة المرسومة على زاوية فمه بشدة، ازداد احمرار وجهي أكثر و أكثر و أطلّ الغضب من كل قسماتي فيما رميته بنظرةٍ ثائرة فضحك بشدة. كنت على وشك أن أكيل له سيلاً من الاحتجاج، إلا أن قدوم النادل أنقذه من براثني...

- "لا زلتِ تحيين قهوة الاطفال؟"

نعم كان لازال يذكر كرهني للقهوة "الدنيا مرّة لا تحتاج لطعم القهوة لتزيد مراراً" كان لا زال يتذكر اختياري لمشروبٍ آخر أسود أشدّ حلاوةً و لذة، أشربه مهدوءٍ مدّعيةً بأنه قهوة، سماها قهوة الأطفال .

و على الرغم من النجمة التي لمعت في سماء سعادتني لجملته البسيطة تلك، إلا أنني كنت لا أزال غاضبةً منه، فتجاهلته و توجّهتُ للنادل :

- "كوبٌ من الكاكاو الساخن لو سمحت ."

ابتسم ابتساماً ظافرة، نعم، لم يتغير، لا زال قادراً على تغيير الفصول في قلبي بكلمة واحدة، والأدهى أنه كان يدرك ذلك، تمنيتُ لو أنني طلبتُ كوباً من الشاي فقط لأغبطه !

وفيما أنا غارقةٌ في حربٍ مع أحاسيسي المتناقضة ما بين التوتر والتمرد والعشق الخفيّ محاولةً كبح جماح انفعالاتي فيما كانت تدفعني نحو حافة الجنون، لمحتُه يشير بيده للنادل في إشارةٍ خفيةٍ، هزّ الأخير رأسه وابتعد، وما هي إلا دقائق حتى فهمت معنى إشارته، اتسعت عيناى وأنا أصغى للكلمات الأغنية المفضلة لي طوال سني طفولتي، تنبعثُ بدلاً عن اللحن الناعس من مسجل المطعم:

" يا ريت بترضي .. يا ريت .. حبيبة قلبي تكوني .. بعمرلك بعيوني بيت ..  
حيطانوريف جفوني "

كان لازال يذكر أدق التفاصيل، وعلى الرغم من السعادة التي كنتُ غارقةً فيها إلا أن ذكرياتي الحزينة أطلت برأسها فيما أخذتُ جردان الـ " لماذا " تفرض في سعادتى بهم، نعم لماذا؟! لماذا رحل حينها؟ أدركتُ بأن الوقت قد حان لفتح تلك الصفحة القديمة، هنا، سأختم ذاك الفصل من ذكرياتي أخيراً، أن لتابوت الألم أم يلفظ أحلامي المدفونة حياً بداخله، لا ظلام ولا خفافيش بعد اليوم، لا أشباح و لا أغلال، لا خوف بعد اليوم، فلتأتني العواصف إن شاءت، اليوم .. سأختم ذلك الفصل .

بدأتُ ألمم أطراف شجاعتي محاولةً أن أصيغ بعض الكلمات، كان الأمر أكثر تعقيداً وصعوبةً مما توقعت، فهربتُ مني أفكاري وشردتُ عيناى لتتعلقا بفتاةٍ نحيلةٍ كانت تجوب بين الطاولات بهدوء، ابتساماً هادئةً مرسومةً على

وجهٍ لطيف، لم تكن جميلة، ولم تكن قبيحة، كانت ملامحها من النوع الذي تنساه بعد دقائق، لكن ما كان لافتاً فيها هو تلك السلّة المملوءة بالورد البيضاء التي كانت تحملها على ساعدها، تعرضها للبيع؛ هناك أشياء في الدنيا مهما امتلكت منها تطالب بالمزيد، هذا كان حالي مع الورد، فعلى الرغم من باقة الورد الحمراء الكبيرة القابعة أمامي على الطاولة، إلا أن عيناى تعلقتا بالورد البيضاء كعيني طفلٍ لمحٍ لتوّه بائع حلوى يبيع أكواماً من ألواح الشوكولا، إقتربتُ من طاولتنا وسألْتُ سؤالها بصوتٍ روتينيٍّ منخفض :

- "سيدي، تشتري وردة ؟"

في ثوانٍ ذابتِ النظرة المفتونة من عيني وحلّ محلها نظرةٌ جليديّة قاسية وأنا أحملق بالرمز الكريه المعلق على رقبتها، كانت الكلمات تلمع على الفضة باستفزازٍ صارخ " لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار " منقوشة على السيف ذو الرأس المشطور... كلمة واحدة كانت تتأجج في داخلي لتصبّ أنهاراً من البغض والكراهية والحقد ..

"شيعية"

وفيما همّ سميّزٌ بإخراج محفظته ليبنتاع لي الوردة التي تاقت نفسي لها، أوقفه صوتي وأنا أرد بقسوة :

- "لا أحب الورد، شكراً."

لمحتُ نظرتي معلقةً على سلسلتها، أطرقتُ برأسها وابتعدتُ كما أقبلتُ بهدوء، وفيما كانت تبتعد ماجت في رأسي صورٌ حديثةٌ من القصير وبنياس،

حيث اندمجت الجثث بالسكاكين، و الرماد ببقايا حياة، و الألم بعنصرية  
وحشية و إجرامٍ مرعب، كلهم ارتبطوا بكلمة واحدة فقط " الشيعة " .

- "لماذا فعلت ذلك؟"

سألني بهدوءٍ و هو يراقبها و هي تكمل جولتها بين الطاولات

- "ألم تر؟"

- "أرى ماذا؟"

أطلقت الكلمة التي كانت تحوم بداخلي بكرهٍ و حقد ..

- "شيعة!"

أطرق رأسه و هزّه بحزن ..

- "لم تتعلمي شيئاً يا سهام! لم تتعلمي شيئاً بعد!"

اندفع الدم إلى وجهي و أنا أهتف بغضب:

- "يقتلون أهلنا هم ! يذبحونهم كالنعا، و يعلنون بأن حرهم على  
السوريين لدعم بشار، و تقول بأنني لم أتعلم؟! أنت من لا يفهم ! لتعد من  
حيث أتت، لا نريدها، لا نريدهم بيننا، مجرمون قتلة ! لطالما أحبهم شعبنا و  
حماهم، لطالما احتضناهم في مدننا و حتى في بيوتنا، فباعونا بأبخس الأثمان،  
الآن و هم يسرقون و يستبيحون و يقتلون ! تقول لي لم أتعلم؟! أنت! تحسب  
نفسك سورياً بحق؟! "

تجاهل نبرة الكراهية البغيضة في صوتي و كل الاتهامات الدامية التي رشقته بها، وردّ عليّ بهدوءٍ صاعق:

- "تبيع الورود يا سهام ! تبيع الورود ... تطوف بين الطاومات تسأل هذا و ذاك، تقف ذليلاً و تحتمل نظرات من هم مثلك لتكسب قوتها و تعيش، و إن اختارت فيما بعد أن تذهب لتسرق و تقتل أو حتى تدبج، سيكون ذلك لأنكم رفضتم أن تشتروا منها الورود فقررت أن تبيعكم الألم و الدم، هي الآن فقط تبيع الورود !"

لسببٍ ما سمعت في رأسي صوت جعفر و هو يبتسم و يرد عليّ ببساطة: " أنا مسلم ! " لكنني كأني أنثى مغرورة، نفضت صوته عني و رفضت الاعتراف بالخطأ بل و تماديتُ، فاندفعتُ الكلمات مني رغماً عني ..

- "طبعاً ستدافع عنها، انت مثلها من جند الأسد !"

- "أهذا رأيك فعلاً؟"

أطرقت برأسي، عضضت على شفتي السفلى و نظرت بعيداً، مدّ يده عبر الطاولة و أمسك بيدي مكرراً سؤاله بالحاح ..

- "هذا رأيك؟"

لمستهُ على يدي زرعتُ رعشةً في قلبي، كان شعوراً ضخماً، أكبر من أن تتسع روحي لأي شيءٍ إلى جانبه، شعورٌ طرد كل المشاعر الأخرى، و افترش كلّ مساحات ذاتي بأريحيةٍ و ثقة، عندها فقط تفتحتُ الكلمة في قلبي، على الرغم من كل محاولاتني لوأدها: "لازلت أحبه، أنا أحب سمير !"

ماتت كل الكلمات بداخلي، فلم أتمكن من الرد عليه، فرفعت له عيني و  
اعترافي يشعُ منهما، و ما أن قرأه حتى تألقت عيناه ببريق طالما رأيته في الكثير  
من أحلامي، مدّ يده الثانية عبر الطاولة ليسمك بكلتا يدي ...

- "سهام ... تزوجيني!"

أحسستُ ببراكين تصب في عروقي و بأعاصير تعصف بكل أحزاني و  
ذكرياتي، بكل ذرة رمادٍ في زوايا نفسي الكسيرة، سمعتُ أصوات تغريدٍ و طافت  
الفراشات في روحي، لم أكد أصدّق أذني ... ألف نعم صرخ بها وجودي، و كادت  
تعلنها عيناى و تتبعها شفطاي، لكن ... هيمات أن يغادر الجرح نفساً كسيرةً  
بسهولة، فقد تجمعت كل الأشباح و الأقدار، كل الصور و الأفكار و أخذتُ  
تصرخ في داخلي بعنف: "سيتركك مرةً أخرى، قاومي ... لا!" ما كنت لأصدق  
لو أنني كنت في وعي، لكن الرعب أسكّر عقلي و شلّ أفكاري كلها، داعبتُ  
عيناى ذكرى دموعٍ ذرفتُها في حارةٍ حلبيّة قديمة، و ارتسمتُ في خيالي صورته و  
هو يهض عن الطاولة و يرحل مع أنين قانونٍ شرقيّ عتيق .

لستُ أدري أيّ شيطانٍ كان ذلك الذي هتف من خلال شفطي ..

- "لا ليس هنا!"

لم أتمكن من احتمال نظرة الألم في عينيه، سحبتُ يدي من يديه و نظرتُ  
بعيداً .

- "هناك يا سمير! يجب أن نعود لهنالك، لدينا صفحةٌ علينا أن نغلقها  
أولاً!"

- "بهناك تقصدين؟"

قاطعته بحزم:

- "دارُ الياسمين، الجديدة، حلب القديمة."

هتف باحتجاج..

- "سهام المكان مدمرٌ بالكامل!"

هززت رأسي بعناد

- "لا يهمني!"

- "الجديدة منطقةٌ متنازعٌ عليها! فيها اشتباكاتٌ ومعارك!"

- "لا يهمني!"

- "سهام!"

ثارت ثائرة أشباح العتم في قلبي فأخذت ترقص بجنونٍ بين جنبات نفسي...

- "لا زلتَ جباناً، لم تتغير!"

تعمدتُ أن لا أنظر إليه، كنت أعرف أنني بنظرةٍ واحدةٍ لعينيهِ سأستسلم تماماً، و أعود لحجز كل مخاوفي في سراديب الشكّ، لكنني كنت أرفض أن أعود أسيرة مخاوفي، فإما أن أطردها نهائياً، أو أن أعيش عبدةً لها طوال

عمري، زممتُ شفّتيّ بتصميمٍ لأقاوم سيلاً من دموعٍ كاد يفيض و أنا أسمع رنة الحزن في صوته:

- "لستُ جباناً يا سهام! تعرفين ذلك!"

- "تهرب من مخاوفك و تختئى في زوايا الحياة، ترفض أن تحارب الطوفان فتعيش على الهامش خوفاً من المواجهة، ماذا تسمي ذلك؟!"

- "قد أهرب من الخطر، و أبتعد عن وكر الموت، أرفضُ أن أغوص في قذارة احتمالات الفشل، لكنك يا سهام أشد مني جباناً!"

رفعتُ عينيّ إليه باستغرابٍ لأراه يحدّق في الأفق سارحاً بعيداً عني ..

- "نعم أشدُّ جباناً مني، إن كنتُ أنا أهرب من مخاوفٍ أراها، فأنت تهربين من رؤية الواقع، تهربين من المستقبل، تهربين من كل شيء، تحبسين نفسك في عالمٍ خياليٍّ من الطفولة و البراءة، تغمضين عينيك و تمشين في الحياة عمياء، مدعيةً الشجاعة و أنت لا تجربين حتى على فتح عينيك للاعتراف بالواقع."

نظرتُ لي نظرةً لم أزمثلها من قبل، لم تكن نظرةً حزينةً أو يائسةً، كانت نظرةً لم أتمكن من قرائتها ..

- "أنتِ مصممةٌ على الذهاب لهنالك رغم الخطر؟"

لا بد أن أسوأ صفاتي هو العناد، فعلى الرغم من ارتفاع اصوات نواقيس الخطر بداخلي، على الرغم من نزيف قلبي و صراخه المستمر، على الرغم من عينيه اللتان زرعتا فيّ ألف حسرة، إلا أنني سمعت صوتي و هو يردُّ بهدوء ..

- "بعد الحادث لم يعد لديّ ما أخسره!"

نعم كان كلامه صحيحاً، كنتُ فعلاً جبانة.

وصل النادل بالمشروبات التي كنّا قد طلبناها، ارتشف فنجان قهوته دفعةً واحدة ..

- "انتظريني هنا لن اغيب أكثر من ربع ساعة."

تركني مع كوب الكاكو الساخن ورحل ...

أخذتُ الأفكار تتقاذفي بجنون، ما بين موجةٍ من قلقٍ و خوف، و هتافٍ ساخرٍ بداخلي " لن يعود " و بين أسفٍ على عنادي و إهاناتي له، سيعود! لا بد أنه سيعود، و عندها سأقول له، سأقول بأنني أحبه و بأنني موافقة، فاضت دموعي و أنا أسرق رشقاتٍ من كوب الكاكو، رفعتُ يدي إلى عينيّ لأمسحها بسرعة، الخط الأسود على يدي جعلني أتذكّر، الكحل على عينيّ، أخرجت مرآة أمل الصغيرة من حقيبتي و نظرت فيها، كانت الصورة مألوفةً لدرجة الألم، العينان المملختان ببقايا زينةٍ ذبحتها دموع الحيرة ذاتها، هربت من الذكرى الأليمة بسرعة، مسحت دموعي و صلّحت زينتني، أعدتُ المرأة إلى حقيبتي في الوقت الذي وصل فيه، لقد عاد مرتدياً بذلته العسكرية، طلب حساب الطاولة من النادل، سدّده ووقف ماداً يده لي:

- "هيا بنا."

قبعْتُ في مكاني، الحيرة تغمرني و قلبي يهتف بإصرار "هيا! قولي له، قولي!"  
اكتشفت أنني طلبت منه ما طلبت لأبعده، لأهرب منه، لكنني ما كنت لأنتوقع  
أبدأ بأن !

- "هيا بنا!" كرر الطلب ويده لا تزال ممدودةً لي

نهضتُ من على الطاولة كالمسحورة و مشيت إلى جانبه، أمسك بيدي،  
أحسستُ بارتعاشٍ خفيف، لم أدرِ أبردَ عنه أم عني، سرنا و الصمتُ يغلفنا و  
هو يحتوي يدي في يده، يسحبني بقوةٍ و تصميم، وددتُ لو أَعترف، زرعْتُ "  
أحبك" على لساني ألف مرة، لأعود و أبتلعها من جديد؛ كان بانتظارنا عربةً  
يقودها أحد زملائه، جلس هو في المقعد الأمامي و جلست أنا في الخلفي، و  
طوال خمس دقائق حاولت أن أتكلم لكن كل محاولاتي ضاعت سدى، لقد  
هربتُ مني كل الكلمات، استسلمتُ و قبعْتُ في مكاني بهدوءٍ بانتظار أن نصل.

مررنا بأكثر من حاجز عسكري، و على كلِّ حاجزٍ كانا يبرزان بطاقتهما  
العسكرية و يشيران لي على أنني " من طرف فلان"، و عندما وصلنا إلى مشارف  
المنطقة، وقفت بنا السيارة و قال زميل سميرو هو يرميه بنظرةٍ طويلة ..

- "هذا أبعده ما يمكنني الوصول إليه."

هزَّ سميرو رأسه بتفهم ..

- "متأكد أنك ستكون بخير؟"

- نعم, لا تقلق يا وسام, شكراً لك, و سلامي لرائد و بهاء " اصطنع  
ابتساماً لا مباليةً على وجهه و تابع قائلاً بصوتٍ ساخر " قل لهما بأني  
سأغلبهما في " برتية التريكس " القادمة."

ضحك وسام ضحكةً مقتضبةً...

- "لا فائدة ترحى منك, لا يشغل عقلك إلا ورق اللعب!"

اختفت الضحكة كما بدرت بسرعة, و ارتسمت على وجهه نظرةٌ جدية...

- "سمير, خذ حذرك!"

أوماً سمير برأسه بخفةٍ وهو يترجل من السيارة و يفتح لي الباب

خرجتُ من السيارة التي ابتعدت ببطءٍ فيما كانت عجالاتها تسحق الحصى الكلسية المتناثرة على الطريق، لم تكن الحصى فقط ما كان متناثراً على الطريق، أخذتُ أتفحص المكان من حولي بذهول، فألى جانب أصوات تراسق الرصاص والانفجارات المتتالية، المشهد كان سريالياً إلى أبعد الحدود، كثيراً ما كنت أرى صوراً عن دمار بلدي، بل و كنتُ متابعاً لصور منطقة الجديدة بشكلٍ خاص، فقد كنت أحسّ بأن روحي ما زالت حبيسة أرقفتها منذ ذلك اليوم .. كانت الصور تأتي مرفقةً بتعليقات مُرّة، أحد التعليقات التي لا أنساها كان .. " هذا ليس مشهداً من أحد أفلام هوليوود، إنها سوريا ! "

نعم لم يكن مشهداً هوليوودياً، لقد كان واقعاً، رائحة الدخان و البارود كانت واقعاً، ملمس الحصى تحت قدمي كان واقعاً، و الخراب الممتد لأقصى مما يصل إليه البصر أيضاً كان واقعاً، لقد كان الواقع أكبر و أعنف من كل الصور التي رأيتها .

مدّ ساعده لأستند إليه، وضعتُ يدي عليه بهدوء و مشينا بين أكوام الحجارة ..

أنصاف أبنية كانت قائمةً في مكانها لتشهد على قصص من كانوا يملؤونها صخباً و حياة، لوحةً مائلةً على جدارٍ هنا، خزائن مطبخٍ مدمرٍ هناك، و بضعة كراسي متناثرة في غرفةٍ كان يبدو أنّها كانت يوماً غرفة جلوس، الطوابق السفلى كانت قد تعرضت كلها لعملياتٍ واسعةٍ من النهب، لكن الطوابق العليا الخطيرة كانت لا تزال تحافظ على بعضٍ من آثارها، خزائنٌ و سرير طفلٍ كان ما دفع إلى عيني دموعاً ابتلعتها بسرعةٍ و أنا أشيح بوجهي، لم تحافظ كل

الأبنية على ذكرى قاطنهما، فأكثر الأبنية كانت قد تهاوت بأكملها لتدفن تحتها تاريخاً بأسره، لتموت فيها ألف قصة كانت تُغزل بين جدرانها .

أصوات الرصاص كانت تضفي إيقاعاً حزيناً على لحنٍ مؤلمٍ كانت تعزفه ذاتي بأسى، و أنا امشي متعثراً مستندةً إلى ذراع سمير، كنتُ أطوف بعيني باحثةً عن أثر حياة، أيّ حياة! هيمات ! حتى البيوت القليلة التي كانت لا تزال قائمةً لتحمي قاطنهما كانت تفوح منها رائحة الموت ! لن يكفي أن أقول بأنني كنت في مقبرة كبيرة ! لا، فالمقابر كان فيها شيئٌ من حياة، بضعة شجيرات هنا وهناك، ربما حتى شجرةٌ زرعتها أحدهم لتفيء قبر شخصٍ عزيز، لكن هنا حتى أشجار الياسمين استسلمت و فاضت أنفاسها الأخيرة و هي تشهد على زمني تحولت فيها السماء من عاشقةٍ ولهي تلثم وجنتها برقة حبات المطر، إلى مجنونٍ ساديٍّ يصبّ جام جنونه عليها ناراً و رصاصاً و صورايخ .

طافت بخيالي ذكرى "الجديدة" كما كنت أعرفها، البيوت الحليبية الناعسة على طرف فسقيات المدللة، أشجار الياسمين تعطرّ الجو برائحةٍ تمنح الجو سحراً شرقياً لا مثيل له، و القناطر الرقيقة التي تُشعرك بأنك عدت عشرات السنين إلى زمن فوانيس ألف ليلةٍ و ليلة السحرية ... أغمضتُ عيني فرأيت حلب فاتنةً ساحرةً تتبختر بدلالٍ تحت إزارها الشرقي الشفاف، و تلمع في عينيها نجوم الهوى و العشق، لكنني فتحت عيني لأرى حلب جسداً ميتاً، تنهشه كلاب الطمع بوحشيةٍ لا تُصدّق .

انهمرت دمعاً من عيني، مدّ يده و مسحها من على وجهي بهدوء، نظر إليّ بحنان، احتواني بنظرتة و أخذني بعيداً، نحو مكانٍ لا موت فيه، أحسست بروحي تتسلل إلى داخل روحه و تختبئ بوجل، أمسك يدي برقةٍ و همس بحزن:

- قلتُ لكِ بأن المكان مدمرٌ بالكامل ."

فتحتُ فمي لأرد، فصدرتُ عني شهقةٌ بكاءٍ و فاض الدمع غزيراً من عيني،  
اقترب مني وضممني إليه بحنانٍ مريباً على رأسي بركة .

ذبتُ في حضنه، تملّكني دَفْؤُه و قتل قشعريرة الخوف بداخلي ..

- "لا تخافي يا سهام، لا تخافي! أنا معك ."

حين هدأت دموعي، ابتعد عني بهدوءٍ و شدني من يدي ..

- "لم يعد المكان بعيداً، سنمرّ فقط بحاجزٍ آخرو .."

لمحتُ شيئاً غريباً على بذلته، بقعةٌ حمراء صغيرة، أخذت تتسع بسرعة ..

- "سمير، ما هذا ؟"

تابع نظراتي فرأى الدماء تنتشر بسرعة، نظر للأعلى و شدني خلف أحد  
الجدران بسرعة، نظرتي نظرةً لن أنساها ما حييت و هو يتهاوى على الأرض ..

- "سهام .. أحبك .. أنا آسف ."

لم تكن يده كافيةً لحجب البقعة على صدره، فالبقعة أخذت تتسع و  
تتسع حتى أغرقت نصفه الأيمن كاملاً، في حين ضرّجت الدماء يده و هي  
تندفق من صدره بجنون، في البداية لم اتمكن من استيعاب ما كان يحدث،  
فثقافة الكابوي السينمائية علمتنا منذ طفولتنا بأننا نسمع صوت الطلقة،  
ثم يضع البطل مباشرة يده على جرحه، يصرخ، ثم يقع ..

لكن ثقافتنا كانت بعيدة كل البعد عن الواقع، في الواقع ... يهبط الموت عليك فجأة دونما تنبيهٍ أو مقدمات .

موت؟ ... أجل قلت موت، فسميرٌ كان قد تلقى رصاصة قناصٍ في صدره ! فقط عندما استوعبت ذلك أخذت بالصراخ ..

- "سمير! لا أرجوك، سمير! إسمعي !

شردتُ عيناه عني و سالَ خيطٌ رفيعٌ من الدماء من شفتيه، كان عليّ أن أفعل شيئاً، مجدداً ... كانت ثقافتنا المشوّهة قاصرةً لتتمكن من مساعدتي على استيعاب الموقف، فحسبتُ أنني ككل أبطال الأفلام سأتمكن من التخطيط بهدوء، وسأستجمع بطولتي و حبي لأحمل سميراً إلى بر الأمان .

لكنني حين حاولت لفّ ذراعه حولي لأحمله، أو حتى أسحبه، أدركت ضخامة وهم كلمة البطولة، و عجزَ قدرتنا البشرية، فقد خزت قدماي من تحتي و تهاوينا سوياً على الأرض وسط صراخي و دموعي، لكنني لم أياس! حاولتُ أن أجره من ذراعه، ثم من ثيابه، فتمزقت ثيابه، و وقعتُ مرّةً أخرى ، امتزج اللهاث بالصراخ بالبكاء، نهضتُ مرّةً أخرى و عاودت سحبه مجدداً، سحبتُ و سحبتُ حتى خارت قواي تماماً و وقعتُ على الأرض، لم أكن قد تمكنت من تحريكه أكثر من بضعة أمتار، أحسستُ بالعجز التامّ فيما كانت الدماء تنسابُ من الجرح بعناد، دفنتُ رأسي في جسده و أجهشت بالبكاء، انتفضتُ و أنا أحسنّ بلمسة يدٍ على كتفي، رفعتُ عيني لأرى شاباً ملتماً يضع سبابته على موقع شفتيه طالباً مني أن أسكت، ثم أشار لي بأن أبتعد، نهضتُ بسرعةٍ و هرولتُ مبتعدةً فيما أسند هو ذراع سمير الأيمن إلى كتفه، و طلب مني أن أفعل المثل بالذراع اليسرى، حملنا سمير سوياً فأشار إلى منزلٍ قريب،

بدأنا بالتحرك نحوه بحذر، و ما هي إلا دقائق و كنت اقف إلى جوار سمير الممدد على سريرٍ معدنيٍّ صغيرٍ، فيما تناهى إليّ صوت جدالٍ كان يدور في الغرفة المجاورة .

- "قلتَ بأنه من جيش بشار؟"
- "نعم، العلم ذو النجمتين الخضراوين."
- "و من ضربه كان قنّاص الجيش الحر؟"
- "نعم، تلك بقعته ."
- "و لماذا إذاً تظنّ بأني سأساعده؟! ما دام الجيش الحر قتله فهو يستحق!"
- "أكان همام يستحق الرصاصة التي وسموها على جبينه؟!"
- "لا طبعاً! همام كان حالةً فردية، الأمر مختلفٌ تماماً، همام لم يكن من جند بشار!"
- "ألقي عليه نظرةً واحدةً فحسب! الرجل يموت!"
- "هو كلبٌ و سيموت كما يستحق ."
- "نسيّت قسم أبقراط!"
- "لا لم أنسى، ربما أنت نسيّتَ بأني لم أتلُ القسم، بأني لم أكمل دراستي، بأني لم أخرج بسبهم!"

- " ليس بسببهم, بسبب الحرب ."

- " هم من يقيم الحرب علينا, أم نسيت بأنهم قتلوا أبي ! أم لعلك نسيت شهور العذاب التي قضيتها في سجونهم, لا لشيءٍ إلا لأنك ربيت لحية !"

- "لا لم أنس, لكن !..."

كانت نبرة صوته مشوبةً باليأس والاستسلام, ثم ساد بعدها صمتٌ رهيب, أحسست بجدران الغرفة تكاد تُطبق عليّ وتخنق أنفاسي, لا! لن يتركه هكذا, نظرتُ إلى وجه سمير يكسوه شحوبٌ مخيف, ومع صوت انفجارٍ آخر تناهى إليّ صوته خافتاً وهو يتابع بصوتٍ أقرب للتمتمة ...

- "لم اتمكن من تركها هكذا! كان لا بد من أن أساعدها."

- "و ها قد ساعدتها كالفارس المغوار, الآن اتركه ليموت كالكلب, موت أيّ واحدٍ منهم يعد مغنماً لنا, حرّياً بك أن تكون سعيداً!"

و مع تلك الجملة, اندفعت لذهني عشرات الصور, صورة زميل سمير العلويّ على الحاجز و هو يسلمُ طفلاً كرهةً صغيرةً و هو يبتسم بحنان, صورة جعفر و هو يهتف " أنا مسلم ", صورة بنتٍ شيعيةٍ نحيلةٍ تدور بين الطاولات بسلةٍ ورد, و نظرة كسيرة, و صوت سمير الحزين يلاحقني: " لم تتعلمي شيئاً بعد! " تعلمت! ... تعلمت! .. أقسم بأنني تعلمت! أردتُ أن أقفز و أقول لهم بأن سمير ليس كلباً, و بأننا كلنا رماذُ لحربٍ ضخمةٍ عنونها الجشع و الدمار, أردتُ أن أقول لهم بأننا كلنا نحب سوريا, و بأننا نحاول أن نحميها كلُّ من موقعه, كلُّ حسب رأيه, كلُّ حسب انتمائه و قناعاته, نحن أيضاً نحب سوريا و شعبها, هو أيضاً, هو أيضاً يحبها ... سيمر ليس كلباً!! سمير ... سميرٌ ... سوري !

اندفعت خارجةً من الغرفة نحوهما، نظرتُ لهما و حاولتُ أن أقول الكثير  
و الكثير مما كان يفيض بداخلي، لكنني لم أتمكن من النطق إلا بكلمةٍ واحدة

...

- "أرجوك!"

غرقتُ بعدها في بحرٍ من الدموع، تهتد تهيدة استسلامٍ و تقدمني إلى  
الغرفة الضيقة حيث يقبع سميرٌ بهدوء، أخذ يفحصه بيدٍ خبيرة، أخذتُ  
نظراتي تطوف بين النظرة الجديّة على وجهه و بين وجه سميرٍ الشاحب، أبحث  
عن أيّ بادرة حياة، عن أيّ بارقة أمل...

ثوانٍ .. هي كل ما يفصل بين البقاء و الرحيل، ثوانٍ .. هي كل ما يفصل بين  
الحياة و الموت .

- "ما كنتما لتحتاجا إليّ على كل حال، لقد مات قبل أن يصل لهنّا ."

- "مات ؟ !!"

كزرتُ الكلمة وراءه مشدوهة، ماذا يعني بـ "مات" ... سمير؟ رحل؟! مرةً  
أخرى؟! ... تجاهل نظراتي التائهة و خرج من الغرفة، فيما وقعتُ على ركبتيّ  
لينطلق من حنجرتي صراخٌ وحشيّ حررت به كل ألمي و عذابي، وسط الدمار ..  
و الخراب .. وسط أصوات الرصاص و الموت ... كان صراخي هو الصوت  
المنطقي الوحيد .

كل المشاهد التالية كانت غارقةً في ضبابيةٍ مهمة، جثّة، هاتف، زملاؤه  
يتوافدون الواحد تلو الآخر، يكلمونني كثيراً ... ماذا يقولون ؟ ... ماذا يفعلون ؟

- "لم يعد لدي ما أخسره!"

- "سهام .. أحبك .. أنا آسف"

- "لم يعد لدي ما أخسره!"

- "سهام .. أحبك .. أنا آسف ... أحبك ... أنا آسف ..."

فوضى الكلمات و الأصوات تناثرت بداخلي و غلّفت وجودي بالكامل, فيما وقفتُ جامدة, صدفةً لروحٍ رحلتُ, أدركُ الباقون ذلك فتركوني وحيدةً قابضةً في زاويتي مهدوء ... لقد رحل ! .. استحضرتُ بسمته بما تبقى لي من حياة, لمسة يده على يدي ..

- "سهام تزوجيني أحبك .."

" أحبك يا سمير! أحبك و لم أكفّ عن حبك يوماً! لاتركني أرجوك! عد إلي .. كلماتٌ شققتُها دمعاً على خدي و هي تنهمر باستسلام, بحثتُ عن بريق عينيه السوداوين, لكن العينين كانتا خاويتين , لقد غاردهما إلى الأبد, لقد رحل !.

obeikandi.com

## الفصل الرابع

obeikandi.com

في الأيام التالية وقعت أسيرة أحاسيسٍ غريبةٍ غير مفهومة، ففيما كانت النظرات القلقة تحاصرني في كل مكان، تابعتُ أنا حياتي بهدوءٍ لا يُصدّق، لم أتهاوى عاجزةً غارقةً في بحور الحداد السوداء، لم أشعر بذاتي تتدمر بعنفٍ و لا بروحي تنسحق بصخب، فبدلاً من أن تتفجر آلامي دموعاً و عذاباً أخذت تتسلل في داخلي و تتقاطر برتابةً هادئة، كان كل نفسٍ أطلقه يخرج مغلفاً بأكوامٍ غير مرئيةٍ من اليأس المرير، كانت التهديدات تتسرّبُ خرساء من بين شفاهي لتضيع في الأثير بصمت، فيما تزحف جثث الذكريات ببطءٍ موجعٍ لتمسح أي أثرٍ للحياة على أرض أحلامي، لم يتبق بداخلي قلبٌ جريحٌ ليصرخ مؤلّباً عليّ أحزاني، فقد رحل قلبي معه، فتابعْتُ مسيرة الأيام بروحٍ خاويةٍ مثقلةٍ بالإحساس بالذنب، لم لا أبكي سميراً؟ لم لا أصرخ محررةً روحي من سلاسل البؤس البغيضة؟ كيف .. كيف أكل و أتحدث يومياً؟ كيف ألاعب أطفال المدرسة؟! و الأدهى! كيف أمارس جريمة الضحك بتلك البساطة؟! !!

كان الموضوع فوق قدرتي على الاستيعاب، لكنني على الرغم من ذلك استمررتُ بهدوءٍ أزاحم شبح الدموع الناضبة في ذاتٍ كسيرة، فأنا لم أعد أحيى الحياة، بل كانت الحياة تمر من خلالي بصمتٍ بعد أن غرقت كل أحاسيسي في غيبوبةٍ طويلة .

حانتُ مني التفاتةٌ للمرأة الجانبية في السيارة، كان المشهد مألوفاً، فقد اعتدتُ مؤخراً على التحديق في المرايا، كنتُ أتدرب يومياً على الابتسام لأخرج لهم كما يريدوني، قويةً صامدة، مع الوقت أصبحت خبيرةً بالابتسام، كنتُ

أمنحهم من البسمات ما يشاؤون، متجاهلةً واقع أنني كنت مع كل بسمَةٍ  
اقتطع قطعة من روعي وأرميها لكلاب الانهزام.

أشحتُ بناظريّ عن المرآة وأخذتُ أحدقُ بتنورتِي بهدوءٍ، لكم أكره اللون  
الأخضر! تقلّصتُ أصابعِي بحقدٍ على اللون المستفز، اقتلعتني صوت والدي من  
سحابات الكراهية الصامته ..

- "سهام، لقد وصلنا."

ارتديتُ ابتسامتي بسرعة، شكرتهُ و نزلتُ مع أملٍ إلى المدرسة، ذهبْتُ إلى  
صفها بسرعةٍ فيما أخذ الأطفال بالتوافد، لسببٍ ما كفَّ الأطفال عن  
معانقتي، حتى أن بعضهم بات يتجاهل إرسال تحية الصباح لي، كانوا يبتعدون  
عني بصمتٍ مشابهٍ لصمتي، ربما كان السبب في بسماتي، فعلى الرغم من  
نجاح تلك البسمات المطلق مع الكبار، إلّا أنّها ما كانت أبداً لتخدع الأطفال،  
فقد استشعروا من خلالها أكوام القتامة بداخلي، قتامة لا يشعر بها إلّا أنا، و  
هم؛ حتى أمل ... حتى أمل بدت بعيدةً جداً !

جلستُ في غرفة المعلمات بانتظار موعد الحصّة الأولى، و أنا ألوّك بقايا  
كلماتٍ أسرَّ بها أبي لي بعد رحيل سميرٍ بيضعة أيام ..

- "لقد خطبكِ مني."

- "من؟"

- "سمير."

أخفيتُ الارتعاش في يدي خلف صفحات كتابٍ كنت أحمله في يدي وركزت نظراتي على سطره باهتمامٍ كاذب، صمّت لبضعة دقائق ثم تابع كلامه بهدوء:

- "فكرتُ كثيراً قبل أن أقول لك، لكن ... من حقك أن تعرفي! في أول يوم رأيتُه و بعد حادثة أبو ضبعو مباشرة، وضعناك في غرفتك و خرجنا لنجلس سوياً، حتى لي الموقف بسرعة، ثم طلب مني يدك، استغربتُ طلبه كثيراً فأخبرني بأنكما كنتما متحابين أيام الجامعة، و بأن غلطة عمره كانت التخلي عنك، أخبرني بأنه لم يتمكن يوماً من أن يُبعدك عن قلبه حتى كتب الله لكما أن تلتقيا مجدداً، و بأنه لن يسمح لشيءٍ في الدنيا أن يفرقه عنك مجدداً"

رفع فنجان القهوة إلى شفتيه، ارتعاشة خفيفةً حانت من يديه، انشغل بإخفاؤها ولم يلاحظ الدمعة التي مسحها بسرعةٍ من على طرف عيني ...

- " تحدث عنك كثيراً، كان يحبك بحق، كان يطالب بموافقتي و مباركتي، و عندما أخبرته بأن لا مانع لدي، طلب مني أن أخفي الأمر عنك، فهو لم يكن ليخطبك و أنتِ كسيرةٍ حزينة، كان يودُّ أن يساعدك على اجتياز أزمة الثقة و الأمان بعد الحادث الكريه أولاً .."

- "لقد طلب مني الزواج."

- "أعرف، فقد اتصل بي يومها، كان صوته يفيض حباً و سروراً، أخبرني بأنه سيطلبك للزواج، لذلك لم أسمح لأمل بأن ترافقك."

- "ليتك سمحت لها! ليتها أتت! ربما لو أتت ما كنا....."

سحبْتُ نفساً عميقاً و أغمضتُ عيني، لأطلق كلماتي لتنفجر من فمي  
كالرصاص :

- "ربما ما كنت لأقتله "

صوت بكاءٍ خافتٍ أوقفني عن اجترار ألمي، لا، لم أكن أنا، فقد تدربتُ جيداً  
على الإمساك بزمام أوجاعي، الصوت كان أتياً من زاوية الغرفة، كانت زميلتي  
هلا قابعةً على أحد الكراسي المترامية في الغرفة، لا بد من أنّها دخلتُ و أنا  
غارقةً في ذكرياتي، حدّثتُ نفسي بذلك و أنا أستغرب لرؤية الانهيار مرسوماً  
بقسوةٍ على كل تفصيلٍ من تفاصيل وجهها، فيما كانت الدموع تفيض من  
عينها بغزارة، لمحتُ نظرتي المتسائلة فدفنتُ وجهها بيديها، و على الرغم من  
أنني كنتُ أهرب من أيّ شكلٍ من أشكال الاحتكاك العاطفي إلاّ أنني لم أتمكن  
من مقاومة رغبتني في الاقتراب منها و التزيت على كتفها بحنان، و ما أن فعلتُ  
حتى علا صوت نحيبها و هي ترمي برأسها بين ذراعي، أحسستُ بدموعها تنساب  
على يدي، و إذ بأوجاعي كلها تتسرب من مسامي لتمتج مع الدموع الهاربة،  
أخذ الحزن يتسلل من داخلي إلى عينها العسليتين الغارقتين في بحر الألم و  
الشكوى، لم يطل الأمر كثيراً، فلم تلبث أن استجمعت شتات نفسها و هدأت .

أرسلتُ عينها لي نظرة اعتذارٍ و هي تمسح دموعها بمنديلٍ صغير، و  
تعتدل في جلستها لتبدأ بالكلام ...

- "زوج أختي "ربال" كان قد فُقد منذ خمسة شهور، كان ناشطاً في  
منظمةٍ إنسانيةٍ لإغاثة النازحين، يوزعون عليهم الطعام و الأغذية الصوفية،  
كان يعمل بأوراق رسمية، و بموافقةٍ من المحافظ نفسه ! لم يكن يعمل إلاّ

بما يتوافق مع قوانينهم، لكنهم وضعوا اسمه على لوائحهم، و على أحد  
حواجزهم سحبوه و التهمة "إنسان" .."

كانت كلماتها تخرج قصيرةً لاهثة، محمّلةً بأكوامٍ من المرارة فيما كانت عيناها  
تتراقصان في محجرهما بتوتر، صمّتت ليضع ثوانٍ لتستجمع أنفاسها و بزفرةٍ  
واحدةٍ تابعت فيض كلماتها ..

- "كمية الناس التي تذلت لها أسرتنا ! و النقود التي تم ابتزازها منّا  
لنعرف عنه أيّ شيء ! أين هو؟ ما تهمته؟ ماذا يريدون منه ؟ هي سوقٌ  
للتجارة بأخبار المفقودين و حرّيتهم هذا ما يعملون عليه لصوص الأمل، لكننا  
ظللنا نحاول و نحاول، و مع كل طرف خيطٍ جديدٍ تتجدد الخيبة و اليأس،  
حتى البارحة .."

تناثرت دموعها مجدداً غزيرةً كأمطار الشتاء، ربّت على كتفها فيما تابعت و  
الغصة تقرض حنجرتها ..

- "البارحة وصلّت لنا أغراضه، أغراضه فقط، فقد " تخلصوا من  
الجثة " لقد مات يا سهام ! قتلوه و لم يمنحونا حتى فرصة دفنه! يعلم الله  
إن كان يقبع في جوف بئرٍ أو في قاع نهرٍ أو محرقة!"

أطرقّت برأسها، أحسستُ بأسراب اليأس تطوف حولنا لتبتلع من على  
وجهينا كل الألوان ..

- "و الأسوأ من ذلك كان كيفية موته ! تعرفين كيف مات؟"

تذكرتُ قصص آلاف المعتقلين و أساليب تعذيبهم, مرت بذهني صورة عشراتٍ من أبو ضبعو يكيلون لشبابنا ويلات وحشيتهم و ساديتهم و حقدهم, فأجبتها بصوتٍ شارد ..

- "تحت التعذيب ؟"

- "لا! لقد مات منسياً! مات في الزنزانة المنفردة, حشروه هو و ستة آخرين في منفردةٍ واحدة, ونسوه تماماً!"

نطقتُ كلماتها تلك و غرقتُ في نوبةٍ جديدةٍ من البكاء و هي تشهق من خلال نحيبها و دموعها

- "مات... خلال ثلاثة أيام!"

الزنزانة المنفردة, كلنا بات يعلم تفاصيل أكثر من اللازم عن ذاك "السجن - القبر", هي غرفة أقاموها في معتقلاتهم, أصغر من مساحة القبر, لها بابٌ معدنيٌّ صغيرٌ يمتد على مساحة وجهٍ كاملٍ من أوجه مكعب الموت ذاك, "حبس الدم" كلمةٌ كنت أسمعها في كل مرةٍ أزور فيها قلعة حلب الشهيرة, فسجن "حبس الدم" كان من أشهر أثارها, كان قبواً يُرمى فيه السجناء حتى تفيض دماؤهم, لكن خيالي الطفولي صور لي غرفاً صغيرةً يحبس فيها السجن حتى "يحبس دمه" يبدو بأن الفكرة المرعبة لم تطرأ على خيالي فقط , ففكر بها غيري و قرر تطبيقها

"كانو يضعوننا ستة أشخاصٍ سوياً في منفردة واحدة... لا تسألني كيف! و في مرةٍ وضعوا أكثر من خمسة عشر شخصاً مرةً واحدة.....!!!!!! أيضاً لا تسألني كيف , لكننا استيقظنا صباحاً يوماً على خبر استشهاد ستةٍ منهم,

قال لي جلال زرنانتي يوماً بساديةٍ بأن الفرع كله تلقى مكافأةً في ذلك اليوم  
فرحاً بذلك الإنجاز العظيم."

تلك كانت شهادة أحد المعتقلين الناجين، ارفقها بصورةٍ لا أظن أني  
أنساها ما حييت، يقف فيها بداخل إحدى تلك الزنازين وحيداً، ليعرض  
استحالة الفكرة، لكنهم كانوا بإجرامهم قادرين على كسر جميع قوانين المنطق  
والمعقول!

- "نظامٌ مجرم، حفنةٌ من الكلاب!"

لستُ أدري إن أطلقتُ كلماتي الغاضبة تلك لأواسيها أم لأسيطر على  
إحساسٍ بالألم كاذ يتجاوز قدراتي على الاحتمال.

- "عبيد بشار! ماذا تتوقعين منهم!"

سحبتُ نفسها من دوامة دموعها وارتسمت على عينيها نظرة يأسٍ و  
خوف، وشيءٌ آخر لم أتمكن من إدراك كنهه ..

- "لا يا سهام! لا! .. الأمر أكبر من مجرد "هم" و "النظام" وأحلامك  
النضالية الرومنسية، عليك أن تدركي الواقع، يجب أن تعرفي بأن الاثنين  
يتقاتلان بتوحش، ونحن فقط من يدفع الثمن و تتم تصفيتنا الواحد تلو  
الأخر، البارحة قضى ابن عمي على يد الجيش الحر و اليوم قضى زوج أختي  
على يد الجيش النظامي، من يعلم متى يحلّ دورك، و على يد من ! من يعلم  
متى يحل دورى، و على يد من !"

سكاكين الواقع العاري كما صورته لي، أخذت تخترق جراحي بقسوة و  
عنفٍ لتزيد من نزيف أحزاني، فيما تلاحقت أمامي صور سميرٍ و هو يتهاوى،  
فيضيع البريق من عينيه السوداوين إلى الابد، فيما استرجع خيالي صوتاً بارداً  
.. " قلت بأن قنّاص الجيش الحرقته ؟ ... اتركه ليموت كالكلب .. موت أيّ  
واحدٍ منهم يعد مغنماً لنا .. حرّيتك أن تكون سعيداً "

رنين جرس الحصة الأولى أسعفني، فهربتُ من أفكاري بسرعة و أنا أنهض  
من على كرسي، تابعها بعيناي و هي تتعد هدهدٍ فيما تلاعبت نسماتٌ خفيفةٌ  
بردائها الأسود الحزين، سؤالٌ سريعٌ لمع في ذهني " هل عليّ أن أرتدي الأسود  
لسمير ؟ "

جاء الجواب مقتضباً من بين شفتي ..

- " عبث ! "

حملتُ حقيبتني و أوراقني و اتجهت نحو صفي، إلى عالم أحبائي الصغار  
بعيداً عن عالمنا المترهل القبيح، نعم لقد كان سميرٌ على حقٍ في هذا أيضاً،  
كنتُ دوماً أحبس نفسي في فقاعة عالم الصغار لأهرب من الواقع و آلامه .

مساحاتُ الألم كانت لا تزال تفصل بيني و بين الأطفال، فمحاولاتي لإخفاء  
مشاعري كانت تصيهم بالريبة و الإحباط، فالأطفال كتلٌ ممتعةٌ من المشاعر و  
الجمال، لا تمنح ثقتها كاملةً إلا لمن يماثلها إحساساً و حباً، أما أنا، فقد  
أصبحت فاقدةً للإحساس.

بعضهم لم يفقد الأمل بي, فبدّل محاولاتٍ خجلةٍ للبحث عني بين أكوام  
الأمي, ليُصعق من شدة برودة جليد ذاتي, وابتعد هارباً بمشاعره الغضة عن  
أفة جرحي وقسوتي .

- "أنسة سهام, أنتِ مريضة ؟"

كانت إحدى تلك المحاولات من لونا الرقيقة, وهي تمسك بيدي برفقٍ فيما  
تحدّق فيّ بعينها اللوزيتين البريئتين, وددتُ لو أخذها في حضني و أغرق في  
موجةٍ عميقةٍ من البكاء, لكنني عوضاً عن ذلك سحبت يدي من يدها و  
أشحتُ بناظريّ و أنا أرد بجمود:

- "لا يا لونا أنا بخير."

لممتُ الطفلة أطراف حياها بلا مبالاة, و ابتعدت لتلعب مع زميلاتها في  
الفسحة, زفرتُ بأسى, كنت أدرك حجم ما أخسره, لكن عزائي كان في أنني على  
الرغم من ذلك, و مهما بلغ حجم خسارتي إلا أنني في عالمهم دوماً, أشعر  
بالامان .

في نهاية اليوم الدراسي صادفها مجدداً، كان الألم لا يزال مختبئاً في قسماها و الحزن يحتلُّ عينها الحزینتین المحمرتین لشدة البكاء، منحنتي نظرةً سريعةً حملت الكثير من المعاني و غادرت بهدوء، حاملةً جعبةً من الأسى و اليأس، تاركةً في نفسي آلاف الأسئلة، أسئلةٌ كانت تطوف في أفق ذاتي بترددٍ منذ رحيل سمير، أسئلةٌ طالما أثرتُ أن أوئدها، لكنها اليوم أخذت ترفرف في حواصل أفكارى كعصافير حبيسة، ترفض الركون لهدوء سجنها الصامت، معلنةً أن حان وقت البحث عن إجاباتها .

وصلنا إلى المنزل، غرّدت أمل بسعادةٍ عند اكتشافها عدم انقطاع التيار الكهربائي، جلستُ أمام شاشة التلفاز بسعادةٍ وهي تضحك ببهجة، تغريدها و ضحكاتهما لم يحملا لذاتي موجاتٍ من النشوة و الفرح، كانت روعي مغلفةً بأكوامٍ من المشاعر البغيضة .

جلستُ أمام شاشة الحاسوب بعد غيابٍ طويل، لقد أهملتُ نشاطي الفيسبوكي منذ مدّة، لا بد أن العودة إليه ستعيد لي شيئاً من توازني و ثقتي، كنتُ محتاجةً فقط لما يجدد حماسي، لما يوجج شعلة الثورة بداخلي، أخذتُ أقلبُ الصفحات ببطءٍ فيما كان يموت آخر أملٍ بداخلي، فبدلاً من أن تغمرني مشاعر الغضب، و التمرد، و القوة، أخذتُ الظلال القائمة تراكم في صدري و تُطبق على أنفاسي، ففيض المشاعر الافتراضية ما كان بعيداً عن سحابة اليأس التي غزت كل شبرٍ في بلادي .

كان ذلُّ اللاجئين و ألم النازحين ينساب بحزنٍ حول خرائط تبشيريةٍ لما  
يسمى بالدويلات السورية، لماذا! ولمن؟ و من رحم الأسئلة الكثيرة تولد أسئلةٌ  
أكبر و أعند ... أهذه هي ثورتنا ؟

فيض دمٍ ينسكب ليل نهار ليروي شجرة الثورة الوليدة، فتتعلق عليها  
طفيلياتٌ متسلقةٌ متوحشة، تستنزف كل دماننا و أماننا، تلتهمها بشره فيما  
تتساقط أوراق الحرية بألم، و تموت براعم الأمل..

" و لأنه يخرج من روح الارض .. يقصفوه .. و لأن موسمه حان أوأنه  
يضرّبوه .. الياسمين الشامي .. يُقطف بأبشع الطرق .. يقطفونه بصواريخ  
الأرض أرض "

كلماتٌ داميةٌ حزينةٌ نشرها صديقي رامي على مساحته الافتراضية، رامي  
القابع في منفي حُبس فيه طائعاً هرباً من شبحٍ يجثم فوق صدر كل من سوّلت  
له نفسه أن يكون مواطناً حراً على الأراضي السورية ، المعتقل ..

نعم، لقد استشهد في بلادي عطر الياسمين .

بلادي، المتنازع عليها ..

بلادي، ما بين "إمارة" و "عرين" ..

بلادي، حيث يكافح الشرفاء ليُبعدوا عن أنفسهم أصابع الحقد و الاتهام، و  
يرتع الأثمون بوحشية و طمع ..

بلادي، التي هجرها كل أحبّتها ..

بلادي, حيث انتشرت نעות خيرة الشباب على حوائط كلا "المعسكرين"  
موسومةً بدعواتٍ بغیضةٍ للثأر, مطالبةً بالمزيد و المزيد من الدماء ..

بلادي, التي بات الموت فيها يخضع للإقامة الجبرية ..

بلادي ..

تراها ما زالت بلادي؟ أم أنها عادت, كما كانت... بلادهم؟

صندوق المحادثة انبثق ليحررني من صورٍ و كلماتٍ كانت تمتص روجي

بنهم ..

- "سهام, أنا قلقٌ بحق! طمئنني عن أحوالكم."

- "نحن بخير يا خال, لا تخشَ شيئاً."

لحظات صامتة أحسست فيها الخال يتسلل إلى داخل روجي و يسترق السمع  
لصوت أنين أحزاني و يأسِي, لحظات أنهاها بإرسال رسالةٍ جديدة.

- "قد كلمنا الخالة رضوى, هي قادمةٌ إلينا قريباً, كلنا هنا نتوقع منك  
أن ترافقها يا سهام, تعالي أنتِ أيضاً."

مرت بضعة ثوانٍ قبل أن تكتب أصابعي الردّ بترددٍ لم أعهده يوماً:

- "أنت تعرف رأيي ... لن أترك .. بلدي."

- "ألا زلتِ تعيشين وهم الثورة؟! ألا ترين ما آلت له حال البلد؟"

- "هي تضحياتٌ لا بد من دفعها لنصل إلى الحرية."

كلماتٌ كررتها ببلاهةٍ دون حتى أن أقتنع بها فجاءت ضعيفةً تافهةً فيما ردّ عليها خالي ياسر بقوة ..

- "أية حريةٍ تلك يا سهام! أية حرية؟!"

جمدتُ أصابعي على لوحة المفاتيح، مكبّلةً بأصفاذٍ من يأس و ألم، فيما تابع هو بتصميمٍ

- "لن أقبل منك أعداراً هذه المرة! إن لم تفكري بنفسك، فكري بأمل! أهكذا تودّين لها أن تكبر؟ دون إحساسٍ بالأمان أو الطمئينة؟

- "لكن الاوراق ! .." كانت تلك آخر حجّةٍ تمكنتُ من استخدامها فحطّمتها بقوة..

- "سأتولى أنا ذلك، سأبعثُ لك بشخصٍ يتابع معك سير أوراق السفر كما فعل مع الخالة رضوى، حدّدي لي فقط اليوم المناسب لك."

هربتُ أصابعي من رسنٍ عنادي و خطّت بسرعة :

- "الثلاثاء ."

و فيما تابع خالي سرد بعض التفاصيل، انسابت الألام في عروقي " لا! لم تعد بلدي!؛ أيقونة ابتسامةٍ صغيرةٍ صفراء أرسلها خالي ليُنهي بها الحوار، و على الرّغم من وداعة تعبيرها و لطافته إلا أن صفارها استفزّتي كأنما يهزأ من ضعفي، كأنما يهزأ من خسارتي.

أطبقتُ شاشةً جهازي بغضبٍ لأجد الدموع تملأ وجهي، معلنةً وفاة وطن .

( ٣ )

كان من السهل جداً أن تجد سيارة أجرة هذه الأيام، فالارتفاع الخيالي في أسعار المحروقات، متبوعاً بارتفاع أشد في أجرة وسائل المواصلات، حوّل أكثر الشعب إلى راجلين أو لراكبي "ميكرو باص" في أحسن الأحوال .

بسمة سخريّة علّت وجهي و أنا أذكر كيف كانت الـ"٢٥" ليرة كافيةً لأجرة مشواري .

دخلنا في شوارع فرعية كثيرة، كانت لتثير قلقي و شهياتي في نوايا السائق سابقاً، لكن ومع الإغلاق التام لأغلب الشوارع الحيوية، و الانتشار المكثف للحواجز في كل مكان، كان الالتفاف هو الحل المنطقي الوحيد .

على بُعد شارعين عن وجهتي توقّف السائق مطالباً بثلاثمائة ليرة سورية، فتحت فمي لأعترض، لكن أتر ثلاث رصاصات على الزجاج الأمامي و بضعة أحر على السقف و الأبواب أنبأتني بقصة رجل يواجه الموت كل يوم لأجل لقمة عيشه و أسرته، أغلقت فمي و سدّدت المبلغ الباهظ بصمت .

أسرعت في خطواتي، فقد تأخرتُ خمس دقائق عن الموعد الذي حدّده خالي لي مع " محمد"، و على باب بناء مصلحة الشؤون الاجتماعية حيث كان موعدي، .. جاءني تأخير آخر مزعج، في هيئة رجلٍ ببرة عسكرية يرفض دخول أو خروج أي شخص " لأسباب أمنية".

وقفتُ غاضبةً متأقفةً في وسط ازدحام المراجعين منتظرين انتهاء "الحالة الأمنية الطارئة" ؛ صوت قعقة لفت انتباه الجميع، حوّلتُ أنظاري لجهة الصوت، لأفاجأ بمشهدٍ يجمّد الدم في عروقي! كان العشرات من الرجال

يساقون بصورةٍ، ما كنت لأتخيل أن أرى مثلها في عصرنا هذا، أصفاً على الأيدي والأرجل، ملامح جماعية من الذلّ والانكسار، يطوّقها حبلٌ طويلٌ من السلاسل الحديدية، تربطهم الواحد بالآخر في سلسلةٍ طويلةٍ يتبعها عسكريٌّ مسلّحٌ ينهال عليهم ضرباً وشتماً، دخلوا البناء الواحد تلو الآخر مغلّفين بصمتٍ مُطبقٍ، لا يقطعه إلا صوت العسكري مستعجلاً ناهراً شاتماً، غابوا عن ناظري، وبعد قليلٍ غاب صوت العسكري مع صوت السلاسل الرهيب، وفتّح الطريق للمراجعين ليتابعوا سيرهم وأعمالهم، وقد فعلوا، أخذ الجميع يتابع حركته دخولاً و خروجاً بهدوءٍ غريبٍ! فيما ظللتُ أنا واقفةً في مكاني بذهول، غير قادرةٍ على استيعاب المشهد الأليم ... ماذا أفعل؟ ماذا أستطيع أن أفعل! أيسطيع أيّ أحدٍ أن يفعل أيّ شيء؟

رَنَات هاتفي الجوال انتشلتني من إحساسٍ تامٍّ بالعجز...

- "سيده سها، تاخرتِ!"

- "نعم يا محمد أنا أسفة، في أيّ طابقٍ أنت؟"

- "بانظارك أمام المكتب في الطابق الثاني."

أعدتُ الهاتف لحقيبتي و صعدتُ للطابق الثاني محاولةً جهدي لأرسل صورة المعتقلين إلى خانة الذكريات، لأتابع سير حاضري بأنانيةٍ مطلقة: ما أن وصلت إلى وجهتي حتى وقفت مُقلّبةً وجوه الواقفين بحثاً عن من يمكن أن يكون محمد، لأجد رجلاً يقترب مني، لا بد أنه هو، كان رجلاً في أواسط العمر، بسيط الملامح ضئيل الحجم، حتى أنني كنت أفوقه طولاً، ثيابه البسيطة تدلُّ على رقة الحال، بسمّةٍ لطيفةٍ على وجهه طالعتني وهو يسأل بأدب:

- "السيدة سهام؟"

- "نعم أنا، أنت محمد؟"

أوماً برأسه و أشار لي لأتبعه لمكتبٍ قريب، بمجرد وصولنا للمكتبِ بادره الموظف بالتحيات الحارة، أخذ منه الأوراق و سأله ببساطةٍ كأنما يسأله عن حال الطقس ..

- "كيف حالكم بعد الهجوم الأخير؟"

كستِ السخرية ملامح محمد و هو يردّ ضاحكاً ..

- "بخيرٍ والحمدلله، لقد حصلنا على بعض التحسينات المنزلية برعاية بشارٍ والجيش."

- "تحسينات؟"

- "نعم، كنتُ أقطنُ في الطابق الثالث، الآن أنا في الطابق الأرضي، كان لمنزلي نافذةٌ واحدة، و الآن بحمد الله بات لدينا خمس نوافذ!."

و وسط ذهولي الشديد، انفجر الاثنان ضاحكين فيما أخذتُ أحملق فيهما باستغراب، أدرك محمد حيرتي فردّ على سؤالي الصامت و الابتسامة لا تفارق شفثيه:

- "قصّفٌ جويٌّ بالإضافة إلى بضعة قذائف هاون."

شهقةٌ بدرت مني و أنا أسأله غير مصدقة ..

- "على بيتك ؟!"

هز رأسه موافقاً ثم استأنف :

- "فداهم بيتي، فداهم ألف بيتٍ إن كانوا سيجعلونهم يرحلون!"

اغرورقت عيناى بدمعٍ أخفيته و أنا أنظر بعيداً، ياله من بطل! ها أنا ذي  
أهرب من بلدي يائسة، فيما يقبع في بلدي أبطالٌ مثله يدفعون كل غالٍ في  
سبيل الحرية، هذا رجلٌ خسر منزله، و ما زال يضحك و يبتسم قانعاً راضياً،  
غرقتُ في دوامةٍ من الخجل و الضِعة و الصِغر ! بمثل محمد تحيى الثورة .

سلم الموظف الأوراق لمحمد وهو يسأله بصوتٍ خافت ..

- "سمعتُ بأنكم تعدون العدة لهجومٍ معاكسٍ على الجيش الحرّ ."

فردّ محمد بصوتٍ قويٍّ فخور ..

- "لن نُبقي على رجلٍ واحدٍ منهم!"

جمدت أطرافي و أنا أستمع للحوار، لا بدّ من أن هناك سوء تفاهم، لا بد  
من خطأ هنا ! هجوم ... على الجيش الحرّ ؟ !!! عدوّ للثورة !! كيف !! هذا  
الذي كنت أحسبه بطلاً !!

أشار لي لأتوجّه نحو مكتبٍ آخر، تقدّمني مادّاً ذراعيه الصغيرين مبعداً أيّ  
احتمال تماسٍ بيّني و بين ازدحام المراجعين ليحميني من أيّ إزعاج مردّداً "  
ابتعد لو سمحت... حرمة ... ابتعد ... حرمة" ..

أنهينا أغلب الأوراق، وفي انتظار آخر الإجراءات على أحد المكاتب لم أتمكن من إيقاف سيل الأسئلة المتسرب من ذاتي، هذا الرجل !! لا بد أن هناك سوء فهم هنا !

- "محمد، أنت من أين؟"

- "الشيخ مقصود."

هزئت رأسي بتفهم، "الشيخ مقصود" كانت مسرحاً للكثير من العمليات مؤخراً، بعد إعلان الأكراد دعمهم للجيش الحر، في حين التفّ بعضهم ليغدر بالقوات الموجودة في المنطقة خلال معركة "تحرير الشيخ مقصود".

لذا كان السؤال المنطقي التالي :

- "أنت كردي؟"

- "لا، أنا ماردلّي."

ما كنتُ لأميّز معنى هذه الكلمة من قبل، لكنني مؤخراً سمعتُ الكثير عن "الماردلين الأنذال" "شبيحة النظام" اللذين يكيلون العذاب و الذلّ ألواناً لأكراد "الشيخ مقصود" سمعتُ كيف دخل الجيش الحر ليحرر الأكراد من هذه الطائفة البغيضة، لكن كيف؟ ولماذا؟ لا يبدو محمد مرتزقاً، ولا رجلاً للنظام ... ثم .. منزله ..

- "الجيش الحر هو من هدّم منزلك؟"

- "لا، الجيش النظامي."

- "لماذا إذًا....."

قاطعني بهدوءٍ و الجديّة ترتسم على تقاطيعه البسيطة ..

- "سيدتي أنا لا أملك في هذه الدنيا الفانية إلاّ شيئين, منزلي وكرامتي, فإن هانت عليّ خسارة منزلي فأنا لن اقبل أن أعيش إن خسرتُ كرامتي ! الطريقة التي انتهكوا بها بيوتنا, أن أفتح بابي لأرى رشاشاً مصوّباً نحو صدري, و عشراتُ الرجال يدخلون البيت ليفتشوا كل شبرٍ منه, أنا كنتُ محظوظاً, زوجتي و أبنائي سافروا تركيا منذ شهر, لكن غيري امتهنت كرامته لأبعد الحدود ! كلّ هذا لأنني ماردلّي؟! لأخسر ألف بيت! لا يهمني! إن كان ذلك ثمناً ليرحلوا عنا!"

دقائق صمتٍ مرّت, مسح فيها نظرة التصميم من على عينيه ليحلّ محلها النظرة الساخرة السابقة, وهو يكمل ضاحكاً:

- "ثم إن مواصفات منزلي تحسّنت فعلياً, من يحتجّ على نوافذ إضافية؟!"

من تحت ضحكته بانّت آثار ارتعاشةٍ خفيفة, تؤذن بسيلٍ جارٍ من الدمع, محتبسٌ في روحٍ كسيرةٍ أخرى, ضحيةٌ أخرى من ضحايا الحرب .

ماردلّي .. كردي .. سمعولي .. علوي .. شيعي .. شركسي .. أرمني .. مسيحي ..  
ماروني .. سني .. جزراوي .. سوري ... سوري ... الكلّ في النهاية سوري !

استلمت أوراقٍ من محمد, شكرته على مساعدته, تركته لكن أثر كلامه ظلّ يعصف في رأسي بعنف .

استقللت سيارة أجرةٍ أخرى, وسمحتُ للنسمات المتسرية من النافذة بأن تحملني معها وأنا غارقةٌ في حربٍ مع ظلِّ أسودٍ كربه يبتّ سمومه في داخلي بحقد, كان وحشاً من عنصرية, وحشٌ يقبع داخل كلِّ واحدٍ منا, ينبذ المختلف, ويهمس بحقدٍ في داخلنا ....

إنه ماردلّي, سمعتُ ما قالوا عنهم! إنهم كلابٍ بشارٍ وخدامه, شبيحٌ يستحق, لا بد أنهم دخلوا منزله لأنه شبيحٌ هو الآخر, الماردليون وضيعون, أنجاس, لا عرض لهم ولا شرف! أكمل الظلّ همساته الصفراء فيما بدأ يتشكل في شكلٍ أعرفه جيداً! تغيّرت نبرة صوته لتطابق نبرةً لن أنساها ما حيتت ..

" اتركه ليموت كالكلب .. موت أيّ واحد منهم يعد مغنماً لنا .. حرّيتي بك أن تكون سعيداً! "

" ماردلّيّ يستحق, لا عرض له ولا شرف! "

إلى جانب الظلّ القائم استرجع خيالي صورة محمد, وهو يدفع الناس بيديه الضئيلتين ... " ابتعد .. حرمة "

فيما تابع الظلّ همسه الخافت: " لا عرض ولا شرف "

سؤالٌ ضخّمٌ بدأ يتشكّل في داخلي بإصرار ...

أيهما أحقّ بنصرتي ؟ من يعارض الثورة, ويحترم الآخرين ؟

أم من يدعم الثورة, ويحقد على الآخرين ؟

الجواب كان واضحاً بدرجةٍ مؤلمة، سأهرب من هذه البلدا! سأهرب منهم،  
سأهرب من كل شيء!

انتشلي من أفكاري صوت انفجارٍ ضخيمٍ اهتزت له السيارة بقوة، نظرتُ  
للسائق مستفسرة ..

- "انفجارٌ قريبٌ جداً سيدتي، قادمٌ من الفرقان ."

صخرةٌ ضخمةٌ من قلقى جثمت على صدري خانقةً كلّ أنفاسي، أمل! أمل!  
وحدها في المنزل !

( ٤ )

مسافةً قليلةً قطعتهما السيارة قبل أن تتوقف، أعلن السائق بأنه لن يتمكن من التقدم أكثر، فالانفجار تبعه اختناقٌ مروريٌّ حادٌّ في حين اندفعتْ عشرات العربات في الاتجاه المعاكس، مبتعدةً بسرعةٍ عن مصدر الانفجار .

دفعتُ الأجرة، خرجتُ من السيارة بسرعةٍ واتجهت نحو البيت بخطواتٍ آليّةٍ راكضة، فوضى حواسي غطتُ على كلّ شيء؛ أغمضتُ عيني لأفرد مساحة ذاتي كاملةً لتدفق الأفكار والعواصف بداخلي ..

أمل !

ضحكتها البريئة داعبت دموعي و آلامي ...

أمل ..

كنتُ قد أخذتُ أهربُ من عينيها الواسعتين، و من سلسيل جمالها الرقيق منذ مدّة، هربتُ من ضحكاتهما المجلجلة، طردتُ فراشات أحلامها، و طيور بسماحتها المغرّدة، منذ قبعتُ أسيرة محراب ياسي: كنتُ أبعدُها .. كي لا يشوب سعادتها نسيجُ ألمي و ياسي، نسيتُ أنّها بكلمة " أحبك ماما " كانت لتقهر أعمق جراحي و تداومها، أم لعلّي كنت أعلم؟

كنتُ قد صممتُ على الهرب، قررتُ أن أهرب من سوريا، من الوطن، من الثورة و من الأمل، فنبذتها و نبذتُ سعادتها، و قبعتُ أسيرة غربةٍ استوطنتني .

قصّفُ في الفرقان؟ في حيينا ! في بيتنا ؟

ماذا تفعل إذا تحوّلت حياتك كلها في غمضة عين، إلى مساحةٍ من الفراغ؟

ماذا تفعل إذا امتزجت البيوت في كومةٍ من أنقاض؟

ماذا تفعل إذا تشابكت القصص و المقدرات، لتخرج كلها سوياً ضفيرة من

عدم !

ها هنا... ها هنا كانت حياة !

تجاهلتُ أصوات صافراتِ الإنذار و طرَقَ المعاول، صرخات اليأس و عويل الألم، أتات الأحياء و الأموات و رائحة الدم الوخّازة!! تجاهلتُ كلَّ شيءٍ و واصلتُ الغوص في صورة العدم ...

أمل ... أمل .. أين أمل ؟ !

من بين أرجلٍ كثيرةٍ لاحت خصلةٌ بنيةٌ حبيبة، و دميةٌ أعرفها جيداً ... دمية أمل !.

و توقف الزمن، توقفت الحياة بأسرها، تكدّس وجودي كله في لحظةٍ انتهى فيها الكون، ذاك الجسد الصغير التائه تحت الركام ... جسدها ... جسد أمل فستانها الأخضر الجديد، بالزهور الوردية المنمنمة على أطرافه، مُزقةٌ منه ارتمت بيأسٍ بين أكوام الحجر. الإحساس انتهى، الحياة انتهت، ما العمر إذا ما ذاب الربيع؟ بخطواتٍ متهاككةٍ تمكّنتُ من دفع نفسي نحوها، سحبتُ المُرقة الصغيرة من التراب، سنصلحه سوياً، ثوبها سيعود جميلاً كما كان، كل شيء... كل شيءٍ سيعود كما كان! تهاويتُ على ركبتي و اقتربتُ من الوجه الشاحب، .. إنَّها هي ... أمل !

صرخةٌ ماتت في حلقي، و غارت كل دموعي خشوعاً، اختفى وجودي بشكلٍ مطلق، وجودي غاب بغيابها ... لكنها .. هنا .. ما زالت هنا .. من قال أنّها غابت!

امتدت اصابعي لتلمس وجنتها المتربة بحنان، بسمّة رقيقةً علقت على شفتيها فيما تناثر اللون الأحمر في كل مكان ..

- "حبيبي ... حبيبي .. ماذا حدث لك ؟ تمدد يدك لتحضيني؟ لماذا الكدمات على ذراعك ؟ لماذا الكدمات على خدك الغالي ؟ "

قربتُ شفتي من وجنتها المتورمة، قبلتها وأخذت أغني ..

" قمره يا قمره .. لا تطلعي عالشجرة .. والشجرة عالية ... و إنتي بعديك صغيرة .. قمره يا قمره !"

- "تعال يا حبيبي .. تعالي معي .. "

مددتُ ذراعي لأحضن التراب، و في لحظات عاد الضجيج إلى الكون البغيض، عشرات الأيدي امتدت، تبعدني عن حبيبي . كلماتٌ كثيرةٌ تناثرت من أفواههم .. " الله " " الصبر " شهيدة " لا .. لا! .. ابتعدوا .. هي فرحة قلبي أنا .. هي أيامي .. أملي .. إنتها أمل !

أبعدوا كاميراتكم عنّا، أبعادوا نظراتكم اليائسة، لملموا شفقتكم و ابتعدوا .. إنتها أمل ! ... ستقوم الآن .. ستقفز بين الأطلال ضاحكةً مغردة .. ستطالبني بفستانٍ جديد .... سأشتريه لها ... سأشترى لها عشرة فساتين جدد .. ابتعدوا ... ابتعدوا ... إنتها أمل !

لكنها صامتةُ الآن .. ستتكلم! .. تكلمي يا أمل! .. أبعدي معاولهم عنك .. قولي لهم ... قولي .. قولي لي .. " أحبك ماما "

بحثتُ عن عينيها بيأس، أين عيناها الجميلتين اللامعتين؟ أين زمردتاي الخالبتان؟ أين أمل؟ ما هذه بعيناها! هاتان العينان الخاويتان، هذا الفراغ المؤلم، ليس لأمل! أعرفه جيداً ...

تلاشت كل الأصوات، اختفت الأذرع الكثيرة، اختفت الأنقاض و الركام، لأجد نفسي في غرفةٍ ضيقةٍ كئيبة، العينان الخضراوان... لا ليستا خضراوين، إنهما العينان السوداوان الضيقتان، والفراغ القاتل بداخلهما، الجسد المسجى على السرير المعدني أمامي، ليس جسدها، ليست أمل .. إنه سمير .. نعم سميرٌ من رحل .. هو الماضي .. هو الألم .. هو فقط، من يحقّ له الرحيل .. إرحل يا سمير ... إرحل .. أما أمل، فهي باقية .. هي المستقبل ... هي الحياة نفسها .

( ٥ )

فتحتُ عيناى ببطءٍ و أنا أستخرج روجى من حلم يقظةٍ فرضه علىّ خيالى  
القلق، لقد كان .. حلم يقظة !

تابعتُ خطواتى بسرعةٍ نحو البيت، نحوها، نعم! هى مازالت هناك، لا  
زالت تنتظرنى هناك، بالحبّ الغامر فى قلبها، بالضحكات المتراقصة فى صوتها  
العذب، ببراءة كلماتها وقسماتها ...

لن نسافر! لن نرحل! سنحارب الدنيا بحبّنا و سعادتنا، سنعلمّ الدنيا  
كيف أن ضحكة طفلٍ أقوى و أعمق من كل مدافعهم ..

سنعلمّهم كيف...لمسةً من حب ... تقهر كل عنصريتهم و أطماعهم ..

ستحى أمل .. ستحى! سيزهر الربيع من بين كفيها، و سيطرح الياسمين  
عطره فى شوارع مدينتنا الحزينة، ستشرق شمس الغد رغماً عنهم ! ستشرق  
شمس الغد لتمسح عتمة الحرب و الدمار، سيحتضِر الألم و تهمر أمطار  
السلام ...

أمل ... هى الغد، وحشيتهم لا تطالها، وحشيتهم لا تطال إلاّ الماضى ... و  
الماضى فقط، أما الغد .. فهو لها .. لهم، الغد .. للأمل ..

ستبقى أمل .. ستبقى ... و ستبقى سوريا عنواناً لها ..

فى سوريا ... لن يموت الامل .

النهاية

حلب ٢٠١٣\١١\٢٠

عملية خلق طفلٍ أدبي هي عمليةٌ مرهقة ، تستنزف طاقات الكاتب و تدخله في حالات من القلق و اللا توازن و الإرهاق، و ليمضي بسلاَمٍ في رحلة خطّه مكنونات نفسه و عصارة فكره يحتاج إلى دعمٍ جبارٍ من أناسٍ يثق برأيهم و حكمتهم .. كنت أنا من أشد الناس حظاً في ذلك فكان لي مجموعةٌ من الأصدقاء ساندتني بشدةٍ من البداية و حتى نهاية رحلتي مع أمل .. لذا و شكراً مني و اعترافاً بدورهم الضخم في إخراج أمل إليكم أترك لهم كلمتي الأخيرة ، من كل قلبي .. أشكركم.

شكرٌ خاص لكل من

مروة مأمون لإلهامك لي لأبدأ روايتي الأولى

محمد علم الهدى لإيمانك و دعمك لي على مدى عامٍ و نصف

محمد عصمت عبثاً أحاول إحصاء أسباب شكري لك

هيرو القاضي

أميمة ماهر

محمد محسن الشيخ

أمير المنجي

سارة وصال

مي عبد الخالق

لمتابعتكم لي طوال مدة تأليف الرواية و دعمكم المستمر لي، لتشجيعكم و ملاحظاتكم .

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر



Noon\_publishing@yahoo.com

ت-٣٥٨٦٠٣٧٢-٠٢ ٠٧-٢٧٧٧٢٠١١